في ظلال الوحي
"١"



رباعيات عمر الخيام

تعريب

وديع البستاني

دار المعارف بمصر

رباعيات
عمر الخيام

رباعيات
عمر الخيام

الفلكي الشاعر الفيلسوف
الفارسي

معربة نظماً بقلم

وديع البستاني

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

ديباجة

في الشهر الثاني من سنة ١٩١٢ ظهرت الطبعة الأولى ، من هذا الإخراج الأول ، مرموقة بنظرة من « نظرات » صديقي السيد مصطفى لطفي المنفلوطي ، رحمه الله ، هي كتابه إليَّ المؤرخ في آخر الشهر الأخير من سنة ١٩١١ ؛ و بها فتحت « الباب » عن الأدب الخيَّاميّ لأبناء العربية ، في عصر العروبة الجديد

ومنذ سنوات ، نفدت الطبعة الثانية ؛ وما زال الباب مفتوحاً يدخله داخلون

فهذه الطبعة الثالثة لسباعيّاتي ، الواقعة في موشّحين ، أسميتهما النشيد الأول والنشيد الثاني ، تظهر الآن لأول مرة منقّحةً ، مهذّبةً ، مضبوطة بالشكل الكامل ، وبعنوان لكلّ سباعيّة ؛ وما هي ، في عرف الصناعة ، إلا الإخراج الأوّل . وقد فرغت من إخراجَين آخرين ، ثانٍ وثالث ، لهذا الأدب العالميّ ، الفارسيّ العربيّ الهنديّ ، ربّما ميزتهما بتسميتين مستقلّتين

وقد ضمَّنت الثاني السباعيات الثمانين، وسبعين تعريباً شعريّاً لسبعين خيّاميّة، باعتبار «الخيّامية» رباعيةً منسوبة إلى عمر الخيّام؛ وقد أُسمّيه «عمر الخيام الشاعر»

أما الثالث، وقد أُسمّيه: «عمر الخيام» فقد ضمَّنته:

(١) الموشّحين المسبّعين (٢) الخياميات السبعين (٣) تعريباً نثريّاً لرباعيّات فتزجرلد المعروفة بإخراجه الثاني (٤) تعريباً نثريّاً للخياميات الفارسية نفسها مع بيان رقم الخيامية في المخطوطة أو في الترجمة المعتمدة (٥) ترجمات خياميات، لبعض مَن دخل الباب بعدي، من أدباء العربية (٦) دراسة ونقداً على سباعياتي، ورباعياتي، وعلى الفتزجرلديات، وسائر الترجمات (٧) أقوال أديبنا العالميّ، أبي العلاء، السابقة لما ضاهاها من الخياميات (٨) محاورة أبي العلاء وأبي القاسم، السيد المرتضَى (٩) رسالة الشيخ الرئيس، ابن سينا، معلّم عمر الخيام، في «الصمدية» (١٠) رسالَتَيْ عمر الخيّام في: «الكون والتكليف» وفي «التضادّ، والقضاء، والبقاء» (١١) مقالاً في «عمر الخيام

عند القدماء » (١٢) مقالاً في « عمر الخيام بين الشعراء » (١٣) مقالاً في « عمر الخيام بين الحكماء » (١٤) مقالاً مفصّلاً في « التحقيق عن الأصيل ، والدخيل ، من الخياميات » (١٥) مقالاً في « شخصية عمر الخيام » (١٦) طائفة من الأقوال العلائية ، تمثل شخصية أبي العلاء

وبالإخراج الثالث هذا ، رميت إلى أغراض معيّنة ، راجياً إصابتها في سبيل الأدب وفلسفة الحياة ؛ منها :

(١) التفريق بين الترجمة والتعريب في نقل الشعر

(٢) إثبات الفضل الأكبر في شهرة الأدب الخيامي للأديب الإنكليزي ادورد فتزجرلد

(٣) إثبات فضل التقدم ، والجرأة الفكرية ، لأبي العلاء

(٤) الدلالة على أن عمر الخيام كان فيلسوفاً ، بشعره ، وبرسالتَيه

(٥) القول بأن الخيّام لم يكن سكّيرًا ، وأن الخياميات المرجّحة صحة نسبتها إليه أدبٌ عالميٌ مُوفّق ، يعين على النظر إلى الحياة نظراً صالحًا .

وسأثبت في الإخراج الثالث كلمة المنفلوطي إليّ ، بخط يده الكريمة ؛ فإنها كانت ترسي ومِجَنِّي ، وبها ادَّرعتُ ، يوم فتحت الباب عن أدبٍ فكريّ جريء ، رُمي صاحبه بالزندقة ، في حياته ، وبالتهتك ، بعد مماته . وها أنا ذا اليوم ، وورائي جيش من إخواني العمريين العرب ؛ وقد انطلقت الحرّية الفكرية ، انطلاقاً كاد يلتبس ببوح الإباحة وفوضاها . وقد أمِن القائل مغبة القول ؛ وبات الويل ويل الفكر ، والسليقة والخلق . تيار تطوّر يقال له التجدد ، جار ، جارف ، الخير كل الخير في محاولة صادقة لصده ، وتصريح مائه عن جُفائه ، بغية الخروج من محّة وصخَبه إلى هدأة ، نسمع فيها شعر الروح ، وقد أخرسته قعقعة المادة ، فنكون إلى هناءة العيش أهدى سبيلاً ، والسلام

وديع البستاني

حيفا ، في ٢٩ آذار (مارس) ١٩٤٧

مقدمة

عمر الخيام — ولادته ووفاته ونسبه — نشأته — علومه وأعماله — فلسفته وشعره — . الرباعيات : — الرباعيات في اللغات الغربية ، الرباعيات في اللغة العربية أو السباعيات

ولادته ووفاته ونسبه

يتردّد تاريخ ولادتهِ في مجال الشك بين سنة ١٠٢٥ وسنة ١٠٥٠ للميلاد ، وقد أجمع العمريّون[1] على أنهُ توفي في نيسابور عام ١١٢٣ ، ورجح عندهم أنهُ نيسابوري أباً وجداً . وكانت نيسابور في تلك الأيام ، عاصمة خراسان ، ومدينة عظيمة ، بعيدة الشهرة بتجارتها وصناعتها . وخراسان أنجبت غير واحد من شعراء الفرس كالفردوسي ، صاحب الشاهنامة الشهيرة ، وفريد الدين العطّار ، صاحب منطق الطير ،

(١) العمريون هم الأدباء الغربيون الذين صرفوا همّهم إلى درس فلسفة عمر وشعره . وفي لندرا اليوم ناد موسوم بالنادي العمري

وجلال الدين الرومي ، وجامي ، والهاتفي ، وغيرهم ممن تفتخر بهم بلاد فارس

وقد ذكره العرب قديماً وعرفهُ الإفرنج حديثاً بهذا الاسم المقتضب من اسمِهِ الحقيقي ، وهو غياث الدين أبو الفتح عمر ابن إبرهيم الخيام أو الخيامي . وقد لاح لأكثر مترجميهِ أنهُ لقِّب بالخيام نسبةً لحِرفتِهِ أو حرفة أبيه ، وتراءى للبعض أنهُ إنما اختاره لنفسِـهِ لقباً شعريًّا ، متوخِّياً السذاجة والتواضع ، خـلافاً للعطَّار والفردوسي وغيرهما ممن اتخذوا لهم أسمـاء فخرية رنانة

وذهب أحدهم إلى أن الخيام اسم قبيلة عربية قديمة ، وحاول أن يثبت أن هـذا الشاعر الخالد عربي الأصل . وحجته في ذلك ورود ذكر قبيلة بهذا الاسم في تاريخ تلك الأزمان ، وأنهُ لا يُعقل أن يكون عمر أو أبوه قد احترف صنع الخيام في حاضرة زاهرة زاهية كنيسابور ، وهي حرفة الرحّل وأهل البادية . وأيد قوله هذا بما ورد في وصية نظام الملك من أن عمر كان رفيقه وصديقه أيام طلبه العـلم في

نيسابور ، فلو كان أبو عُمر خياماً لما كان في طاقتِه أن يجمع ابنه بأبناء الأشراف والأغنياء

نشأته

آثرت في هذا الصدد الاقتصار على إيراد شذرة من وصية نظام الملك الآنفة الذكر ، لشهرتها وطرافتها :

وكان الإمام الموفق النيسابوري ، رحمهُ الله ، ذا مكانة سامية ، ومقام رفيع ، واشتهر عنهُ أن كل من درس عليهِ القرآن والحديث ، موفق يوماً إلى تسنم ذرى المجد ، وإلى سبيل السعادة ورغد العيش . وعلم والدي بأمره ، فأرسلني إليهِ ، لآخذ عنهُ ، وأتفقه عليهِ ؛ فكان يرعاني بطرف ساهر ، وكنت أنظر إليهِ بعين التجلة والإكرام . وحال حلولي بنيسابور ، عقدت عرى المودة والإخاء مع اثنين من تلاميذه اتصفا بذكاء الفؤاد ، واتقاد الذهن : حسن ابن الصباح ، وعمر الخيام . فكنا بعد الخروج من لدن الأستاذ ، نجتمع معاً ، ونستعيد ما ألقاه علينا ، ونتذاكر

فيهِ ، كما كنا نتحادث ونتسارّ في أمورنا الشخصيـــة ، معلنين النيات ، وناشرين الطوايا ، غير متكاتمين . وجاءنا حسن ذات يوم يقول : أجل ، أخويَّ ، من المعروف عن إمامنا أن الحظ نصيب كل من درس عليهِ . وعندي أنهُ إن لم يصدق هذا القول في أمر الجميع ، فلا يبعد أن تحققهُ الأيام في أمر واحد منا . فعلامَ إذاً نتعاهد ونتواثق منذ اليوم ؟ فأجبناه : على ما تروم . وتواثقنا وتعاهدنا على أن أيّنا كان الموفق المحظوظ فرفيقاه أخواه وشريكاه في أيام نعمته وعلائه . وبرحتُ نيسابور ، ومرّت السنون ، وتتالت الأعوام ، وأسعدتني الأيام بتقلد الوزارة في زمن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان . وجاءني إذ ذاك مقترح الميثاق ، وتقاضاني القيام بشروط المحالفة الثلاثية ، فسعيت له لدى السلطان ، فقربهُ منهُ ، وأكرم مثواه . ولـكن أبى حسن إلاّ أن يكون خوّاناً غدّارا ، وأبا مكرٍ ودهاء ، فراح يعيث فى البلاط سعاية ووشـاية ، وما عتّم أن ظهرت خفاياه ، ونشرت طواياه ، فأنزل عن منصبـــه محتقراً مرذولاً . أما

عمر فإذ جاءني وذكّرني بالعهد الذي بيننا منذ عهد الشباب ، أظهرت له كل وفاء وولاء ، ووعدته أن أدخله في خدمة السلطان ، فبادرني بقوله : بربك لا تفعل . وإن خير ما تجود بهِ على صديقك القديم ، أن تضمن له العيش في ظلك الوارف ، مكفياً مؤونة الكسب ، ومتفرّغاً لخدمة العلم والفلسفة وممارسة الحكمة والفضيلة . فأعجبني ذلك منهُ ، وحققتُ له هذه الأمنية ، وجعلت له راتباً سنوياً مقداره ١٢٠٠ مثقال من الذهب يتقاضاه من بيت المال

علومه وأعماله

إن أول من ذكر الخيام من الفرس تلميذه الشاعر النبيل المعروف بخوجه نظامي ، وذلك في إحدى « مقالاته الأربع » حيث يدعوه « حجة الحق » ويجعله في المرتبة العليا بين الفلكيين وأساطين العلم

فقد كان الخيام رياضيًا ، وفلكيًا ، وعالماً طبيعيًا ، وشاعراً وفيلسوفاً معاً . وآثاره شاهدة له في جميع ذلك . فمن تآليفه

رسالة في الجبر والمقابلة كتبها بالعربيــة ، وقد ترجمت إلى الإفرنسية وطبعت في باريس عام ١٨٥١ . وله أيضاً بضع رسائل أخرى في المساحة والمـكعبات تدل على تضلعه من العلوم الرياضية أيما تضلع . ولا غرو فلو لم يكن رياضيًا كبيراً ، لما كان فلـكيًا عظيماً ، حتى انتدبهُ السلطان ملـكشاه لإصلاح التاريخ الفارسي ، فأصلحهُ وتركه يضارع بصحته التاريخ الغريغوري . ومن جملة تصانيفه الفلـكية جدول الأرصاد الذي سماه زيجي ملكشاهي نسبة إلى هذا السلطان، وقد ذكره صاحب كشف الظنون (١ : ٤٠٤) . وله أيضاً عدة تصانيف في العلوم الطبيعية وأخرى في علم ما وراء الطبيعة

فلسفته وشعره

أجل ، كان الخيام رياضيًا يعالج الأرقام ويضرب أخماسها بأسداسها ، وفلـكيًا يساهر النجوم ويرصد ثوابتها وسياراتها . ولـكن علم الأرقام لم يكن ليشغله عن علم الكلام ، ولا كان سير النجوم ليلهيهِ عن سير الأنام . فقد كان في عزلته يستعيد

رائد الطرف من مسارح النجوم والأقمار، ويحل عقال الفكر من مشكلات الأتساع والأعشار، وينظر حوله فيرى من الطبيعة نباتاً نامياً، ونهراً جارياً، وطائراً شادياً، ومن الناس جائراً عاتياً، ولئيماً مداجياً، وتقياً مرائياً، فيطرق مفكراً في شأن الإنسان ومصيره، معتبراً بجهله وغروره، فيتراءى له الوجود فانياً، والحاضر ماضياً، والمستقبل حاضراً؛ فكان بذلك فيلسوفاً وشاعراً.

وُلد الخيام فيلسوفاً، وعاش عيشة الفيلسوف، وشاعراً وعاش عيشة الشاعر، ومات فيلسوفاً وشاعراً. والرباعيات هي سفره الفلسفي الجليل، وأثره الشعري الخالد. ولا بد لنا، دون تفهم نظرياته الفلسفية وإدراك خيالاته الشعرية، من النظر إلى حاله وحال زمانه نظر المفطور على إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

كانت الصوفية لذلك العهد في إبان انتشارها، وكان دعاتها وأتباعهم، بين مبتدع بدعة مؤمن بها، ومختلق ترّهة مقبل عليها. فكانت ملابس التدين والتقشف تلتبس بوشاح الخشية والتقوى، وكانت أثواب زهدهم وريائهم، تشف عن عريهم من الورع المحمود، وخلوّهم من إخلاص العابد للمعبود. وكان

الخيام ذا فكر ثاقب ، ونفس زكية ، فلم تغش بصيرته حجب التضليل ، ولا انعقدت لكنته بحجة القال والقليل؛ فراح يزيّف أقوالهم ، وينتقد أعمالهم ، ويرميهم بكل سهم صائب من الحقيقة كبدها . وراحوا يرمونهُ بالكفر والإلحاد ، ويسلقونه بأسنة ألسنة حداد . ولم يكن له إلا أن يحذرهم حذر المسافر من وحوش الوعر ، وآفات الغدر ، إذ ثبت لديهِ أن الحياة سفَرٌ ومسير أوله المهد وآخره القبر

هذه هي حاله وحال أهل زمانه على زعم بعض من ترجم له ، وهذا ما إخاله كان دأبه وشأنه ، وما أراه مجارياً للرباعيات في مغزاها ومرماها

وقد زعم بعضهم أن الخيام كان فيلسوفاً مادياً كلوقريشوس ، وأنه نظر نظرة في الوجود ، فألفى الحياة أمداً معلوماً وأجلاً مصروماً ، إلا أنه خالفه في الدعوة ، فلم يقل قوله : « كلوا واشربوا اليوم فغداً تموتون » بل قال : اسكروا وتناسوا هموم الحياة ، واغتنموا الفرصة قبل الفوات . ودليلهم فى ذلك إكثاره من ذكر الخمرة والكأس في رباعياته

وزعم آخرون أن الخيام كان صوفياً بحتاً ، وأنه كان يتغزل بالخمرة تغزلاً ويريد بها العزة الإلهية ، شأن ابن الفارض من شعراء العربية ، وحافظ من شعراء الفارسية

فهل كان الرجل سكيراً متهتكاً ، أو فيلسوفاً نزيهاً عفيفاً ؟ سؤال كثرت الأجوبة عنه ، والويل من كثرتها ، ومشكلةٌ عالجها كثيرون ولم يوفقوا إلى حل عقدتها

وهنالك القائلون إن الرباعيات منسوجة على منوال اللزوميات ، وإن الخيام تلميذ أبي العلاء في أفكاره ، وخلفه في مبادئه وآرائه . ولا شك أن أوجه الشبه بين أقوال الرجلين كثيرة واضحة ، ووجه الاحتمال جليٌّ ظاهر . فقد كان عمرُ ضليعاً من العربية وعلومها وآدابها ، بل كان يؤلف وينظم فيها . ولكن ذلك لا يسوّغ لنا اتهام شاعر الفرس بالسرقة عن شاعر العرب . فإن القول المشترك بينهما تصوير حقائق وحجج وبراهين عقلية ، مصوغة في قوالب شعرية ، وليس من قبيل الاستعارات والكنايات وضروب البديع الخيالية ، التي لا فخر إلا لمبتكرها والسابق إليها . وإذا اقتصرنا في الحكم على اعتبار التقدم

والتأخر زماناً ، فلا يسعنا إذ ذاك إلاّ أن نعرّي حتى المعرّي من فضله ، ونتهمه بالأخذ عمن سبقه من فلاسفة اليونان والرومان والهنديين المتقدمين

ومن يوازن بين اللزوميات والرباعيات يرَ أن صاحب الأولى وصاحب الثانية يرميان إلى أغراض متقاربة متشابهة . فكلاهما يقول بخلع ثوب الرياء ، واطراح البدع والترهات ، وتحكيم العقل في أمور الدين ؛ وكلاهما يدعو إلى الزهد في متاع الدنيا واحتقار حطامها ، ويشدد النكير على ظُلّامها وطغامها ؛ وكلاهما ألمع إلى النظرية المادية التي تناولها فلاسفة القرن التاسع عشر وعلماؤه وراحوا يؤيدونها بأبحاثهم واكتشافاتهم — أريد تلك النظرية المضمنة قول أبي العلاء :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

والواردة على غاية ما يكون من الوضوح والجلاء في كثير من أقوال الخيام ، كما سترى

وإذا ذكرنا أن الخيام كان مطلعاً على علوم زمانه ، بل مضيفاً إليها استنباطاته واكتشافاته واختباراته ، حق لنا أن

نرجح أنهُ كان في غنًى تام عن الاقتباس من شاعر المعرّة وفيلسوفها . وقد أثبت البحاث الغربيون أن علوم اليونان وفلسفتهم كانت لعهد الخيام منقولة إلى العربية ، متداولة بين أيدي قرائها ؛ فكان الفارابي قد نقل فلسفة أفلاطون ، وكانت أقوال أفلاطونيوس (أو الشيخ اليوناني أو أفلاطون المصري كما دعاه الفرس) معروفةً مفهومة لدى علماء الفارسية . فالأوْلى بنا أن نحسب النيسابوري مستمدًّا من « جمهورية أفلاطون » من أن تلبسهُ عار السرقة من لزوميات شاعر المعرّة

ولا يذهبنَّ عنا أن بعض الرباعيات منسوب إلى عمر الخيام وهو براء منها ، وذلك لأسباب شتى سنورد شيئًا منها في الكلام التالي على « الرباعيات » . ولنختم هذا المقال بترجمته الواردة على صفحة ١٦٢ من « تاريخ الحكماء » لابن القفطي ، فترى أن العرب كانوا يرمونه بالمروق والخروج عن الدين كما رموا المعري من قبله :

(إمام خراسان ، وعلامة الزمان ، يعلم علم يونان ، ويحث على طلب الواحد الديّان ، بتطهير الحركات البدنية ، لتنزيه النفس

الإنسانية، ويأمر بالتزام السياسة المدنية، حسب القواعد اليونانية. وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها إلى طريقتهم، وتحاضروا بها في مجالساتهم وخلوتهم، وبواطنها حيّات للشريعة لواسع، ومجامع للأغلال جوامع. ولما قدح أهل زمانه في دينه، وأظهروا ما أسره من مكنونه، خشي على دمه، وأمسك من عنان لسانه وقلمه، وحج متاقاة لا تقية، وأبدى أسراراً من السرار غير نقية. ولما حصل ببغداد سعى إليه أهل طريقته في العلم القديم، فسدّ دونهم الباب سدّ النادم لا سد النديم. ورجع من حجه إلى بلده يروح إلى محل العبادة ويغدو، ويكتم أسراره ولا بد أن تبدو. وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة، وبه يضرب المثل في هذه الأنواع لو رزق العصمة. وله شعر طائر تظهر خفياته على خوافيه، وتكدر عرق قصده كدر خافيه)

وقد أعجبني في هــذا الصدد قول أحد مترجميه الغربيين: إن الخيام بسعة علمه واطلاعه كان مسلماً طليق الفكر من قيود التقاليد، وشديد الجرأة على المجاهرة باعتقاده المطابق للمعقول

ولو جاء مخالفًا للمنقول ، شأن السواد الأعظم من علماء المسيحيين اليوم الذين يُصلون رجال الدين حر بًا عوانًا ، و يرمون الرؤساء الروحيين بأسهم الانتقاد والتثريب

وقبل الانتقال إلى « رباعياته الفارسية » هاك نمطًا من أشعاره العربيـــة . وقد عثرت على هذه الأبيات في الجزء الثامن عشر من مجلة الهلال الغراء في سياق مقالة عنوانها « عمر الخيام » بقلم عيسى افندي إسكندر معلوف :

إذا رضيتْ نفسي بميسور بُلغةٍ
يحصلها بالـكدّ كفي وساعدي
أمنت تصاريف الحوادث كلها
فكن يازماني مُوعدي أو مُواعدي
أليس قضى الأفلاك في دورها بأن
تعيـد إلى نحسٍ جميع المسـاعد
فيـا نفس صبرا في مقيلك إنما
تخرّ ذراه بانقضاض القواعـد

* * *

سبقت العالمين إلى المعالى بصائب فكرة وعلو همه
فلاح بحكمتي نور الهدي في ليالٍ للضلالة مدلهمّه
يريد الجاحدون ليطفئوها ويأبى الله إلا أن يُتمه

* * *

العقل يَعجب في تصرفه ممن على الأيام يتكلُ
فنوالها كالريح منقلب ونعيمها كالظل منتقلُ

الرباعيات

لم يؤثر عن الخيام من منظوم في الفارسية إلا بعض مقطعات تسمى بالرباعيات ، لأن بعضها مؤلف من أربعة أشطر جميعها على قافية واحدة ، والبعض الآخر من أربعة أيضاً ، الأولان والأخير منها على نفس القافية ، والثالث مستقل تماماً

فمثال الضرب الأول :

١ مائيم ومي ومصطبة وتون خراب
٢ فارغ زاميد رحمت و بيم عذاب
٣ جان ودل وجام وجامه پردرد شراب
٤ آزاد زخاك و باد أوز آتش وآب

وترجمتها الحرفية :

١ هو ذا نحن وهو ذا الخمر ودكة الشرب والكانون الخرب
٢ وغير مكترثين بالرحمة ولا بخوف العذاب
٣ هاك نفوسنا وقلوبنا وكؤوسنا وأثوابنا مملوءة بثفل الخمر
٤ وها كنا مستقلين عن التراب والهواء والنار والماء

ومثال الضرب الثاني :

١ قرآن كه مهين كلام خوانند أورا
٢ كه كاه نه بر دوام خوانند أورا
٣ در خط پياله آيتى هست مقيم
٤ كاندر همه جا مدام خوانند أورا

وهذه ترجمتها :

١ أما القرآن الذي يسمونه الكلام العلوي المنزل
٢ فيقرأونه في الفترات وليس على الدوام
٣ وأما الآية المحفورة على حافة الكاس
٤ فتلك يقرأونها في كل زمان ومكان

وقد أوردت هذين المثالين بياناً لماهيّة الرباعية الفارسية ، من حيث المبنى ، وهما السابعة والسادسة في أقدم نسخة خطية . ولننظر إليهما ثانية من الوجهة المعنوية ، فنرى أن ذكر الخمرة في الأولى وذكرها في الثانية ليسا على وتيرة واحدة . وأمثال هذا الاختلاف ، وإن شئت فقل التناقض الكلي ، كثيرة جداً . فليس قليلاً ما تجد الرباعية الكفرية نسبةً إلى مغزاها ، تلو الرباعية الابتهالية نسبة إلى فحواها ، فتحتار في أمر الخيام ، ويتردد حكمك فيهِ بين النقيضين ، شكه ويقينه ، وكفره ودينه . فلا بدّ إذن من كلمة في الرباعيات وتاريخها . فإنها مجموعة أفكار تناقلتها العصور ولعبت بها الأغراض والأهواء كل ملعب ؛ وقد اعتراها من الحذف والإبدال ، وشابها من المتشابه والمكرر والدخيل ، ما ترك أمرها مجالاً للبحث ، والتنقيب ، ومضماراً يتبارى فيه أدباء الغربيين أيما مباراة

وقد مضى نحو نصف قرن ونيّف وهم يستقصون أخبارها ، ويقصّون آثارها ، وللآن لم تعثر أيديهم على النسخة الأصلية منها . وأقدم نسخة وجدوها هي النسخة المنسوبة إلى السير اوسلي

المحفوظة في مكتبة بودلين بأكسفورد ، وفيها ١٥٨ رباعية فقط . وكيف لا تحتار إذ تسمع أن في كيمبردج نسخة أخرى أثبت فيها ثمانمئة رباعية ورباعية ؟ أما النسخة الأوسلية فمع أنها الأقدم والأقرب إلى زمن الخيام ، فإنها مكتوبة منذ سنة ١٤٦١ أي بعده بثلاثة قرون ونصف تقريباً . ويوجد في المكتبة الأهلية بباريس نسخة تتضمن ٣٤٩ رباعية وهي أحدث من الأوسلية عهداً ؛ كُتبت في أوائل القرن السادس عشر (١٥٢٨ م) . وفي المكتبة العمومية في بنكيبور نسخة عدد رباعياتها ٦٠٤ ؛ وهنالك نسخ كثيرة مختلفة في عدد رباعياتها ونوعها منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر

وقد كاد يرسخ في أذهان عشاق الرباعيات أن كل مجموعة منسوبة إلى عمر الخيام هي من نفثات يراع ذلك الرياضي الفلكي الفيلسوف الشاعر ، لولا أن ظهر في عام ١٨٩٧ مقال للأستاذ الروسي شكوفسكي ، أثبت فيه أن اثنتين وثمانين منها واردة في دواوين غيره من شعراء الفرس ، وأن نحو نصف هذا العدد

لثلاثة من كبارهم ، هم فريد الدين العطار ، وحافظ ، وجلال الدين الرومي ، وأما النصف الآخر فلأربعين آخرين كأبي سعيد وابن سينا والفردوسي وأنوري وعبد الله الأنصاري . وقد لقبوها « بالرباعيات المتشردة » والظاهر أن مورديها في نسخهم كانوا يلفونها شبيهة بالرباعيات الخيامية ، فيضيفونها إليها بقصد أو بغير قصد . ولقد زاد عددها منذ ظهور تلك المقالة فبلغ ١٠١ ، ولعل مواصلة البحث في هذا السبيل منتهية بالقوم إلى تميز الرباعيات العمرية الحقيقية وفرزها عما سواها

أما عدد الرباعيات المنسوبة إليه مما ورد في النسخ الخطية فألف ومائتان ، نحو ١٠٤٠ منها مستقلة بمعناها بعض الاستقلال بحيث يمكن اعتبارها رباعيات مختلفة . وأما الرباعيات التي لا ريب ولا نزاع في نسبتها إليه فلا تزيد عن الإحدى عشرة . وهي التي أردفها باسمه من ذكره من معاصريه في آثارهم الباقية حتى اليوم

وهاك اثنين من أهم الأسباب المرجحة لكثرة الدخيل والمكرر : أما الأول فهو أنه كان لعمر ككل صاحب رأي

ومذهب أتباع وأشياع يدافعون عنه ويغارون عليه ، وخصوم وأضداد يبغضونه ويقدحون فيه ؛ فكان الراضون عنه ينسبون إليه من نمط الرباعيات التي لا غبار عليها ولا تثريب كالتي يزهّد فيها بالدنيا وحطامها ويظهر فيها بمظهر الورع المتعبِّد . وكان المتعضون منه يلصقون به من عندياتهم ومختلقاتهم رباعيات لا يشتم منها إلا رائحة الخمر والكفر معاً . وقد ذكر ابن القفطي أن الصوفيين نقلوا الرباعيات إلى طريقتهم ، ولا شك أنهم بدّلوها وزادوا فيها حسبما شاءوا وشاءت مقاصدهم وأغراضهم . وأما السبب الثاني فهو أن النساخ على ما يظهر كانوا يتقاضون أجرة الخط عن كل رباعية على حدة ؛ فكان يهمهم أن يزيدوها ويكثّروها طمعاً بزيادة الأجر. وكلا السببين معقول مقبول ، ولا سيما هذا الأخير ، لأن الناظر إلى تلك النسخ ليدهش لجميل خطها وبديع زخرفها ؛ ولا عجب فمقتنوها كانوا أمراء زمانهم ، وملوك فارس وسلاطينها منذ عهد الخيام حتى العصور المتأخرة

ونحن اليوم في عصر لا ينظر فيه إلى مَن قال بل إلى ما قيل ،

وحسبنا من هذه الرباعيات أنها مجموعة خواطر شعرية ، وسجل أقوال فلسفية ، نقرأها فيما نقرأ ونطالع من الأدبيات الفارسية ؛ وحبذا لو كثر لدينا المنقول منها .

الرباعيات فى اللغات الغربية

إن السابق إلى ذكر الخيام من الغربيين هو توماس هيد الإنكليزى أستاذ العربية والعبرانية في جامعة أكسفورد ، وذلك منذ سنة ١٧٠٠ ؛ ويتلوه ڤون همر النمساوي الذي ترجم بضع رباعيات عام ١٨١٨ ؛ وظهرت بعد ذلك في فرنسا ترجمة الرباعيات الحرفية النثرية بقلم المسيو نيقولاس زعيم القائلين إن صاحبها كان صوفياً .

أما الشاعر الإنكليزي المطبوع ، فتزجرلد ، فهو الذي استوحى الخيام روحه ، ونظم رباعياته في رباعيات إنكليزية خلدت اسمه في تاريخ الآداب الغربية ، وطيرت شهرته في إنكلترا وأمريكا وأوربا قاطبة ، ولا بدع إن لقبوه بعمر الخيام الغربي كما فعلوا .

ظهرت رباعيات فتزجرلد لأول مرة في أواسط الشهر الأول من سنة ١٨٥٩ ، فلم تستقبل بجزء من ألف من الاحتفاء الذي

بات نصيبها بعد حين، بل نُشرت فطُويت وألقيت في زوايا النسيان، وأهملت وأغفلت حتى كاد يُقضى عليها بالموت (وقد قدّر لها الخلود) لولا أن قام روزتي وكتب مقالة ضافية الذيول في شأنها ومقامها بين الآثار الأدبية، وتلاه في ذلك وحذا حذوه المستر سوئبرن ولورد هوتون؛ فتنبهت الخواطر إليها بعض الشيء، وتاقت إليها الأنفس بعض التوق. وما قولك فيها وهي الكتيّب الصغير الذي كانت تعرض النسخة منه بمليمين ونصف ولا يقبل عليها أحد، فأصبحت بعد حين وكثير من يبذل العشرين جنيهاً فلا يجد منها نسخة واحدة. ونحو عام ١٨٦٩ ظهرت طبعتها الثانية مضافاً إليها بضع رباعيات جديدة. ولم يمض إلا سنوات قلائل حتى طبعت ثالثة، وعندئذ أعلن فتزجرلد اسمه لقرائها.

وبلغت من عمرها ربع قرن فحياها تنسون بقصيدة كان لها من الرنّة في القلوب والوقع في النفوس ما حرّك السواكن وأثار الخوامد وأحيا الجوامد، فاستيقظ النائمون، وانتبه الغافلون، وأقبلوا على تلك المنظومة يستميحونها عذراً ويعظمونها قدراً. ويلوح لي أنهم لم يبخلوا ولم يقصروا في تعويضها مما فاتها، إذ

أنهم لم يكتفوا بأن أحيوها بل خلدوها بعد مماتها . وعاش فتزجرلد حتى عاد فهذبها ونقحها مرة رابعة ، ومات قرير العين مطيّب النفس . ولا بد لي هنا من الإشارة إلى خلة من خلال هذا الرجل يعد أصحابها على الأنامل ويشار إليهم بالبنان ، وهي أنه كان « خلاً وفيّاً » .

وإذا أردت الإلماع إلى غرام الإنكليز والأميركان برباعيات الخيام ، إن لم أقل ولوعهم وهيامهم فيها وإكرامهم لها وإعجابهم بها ، فحسبي أن أخبر بما شهدته ورأيته وعرفته بنفسي أثناء إقامتي مدة وجيزة في لندرا ؛ وإني فى ذلك لمبتدئ حيث انتهيت ومنته حيث ابتدأت . دخلت مكتبة المتحف البريطاني ، وهي مكتبة الأمة البريطانية بأسرها ، وتناولت برنامجها وفتحته حيث اسم عمر الخيام ، فعددت مئة وثلاثة وخمسين كتاباً ؛ بعضها طبعات مختلفة من ترجمة فتزجرلد ، مزخرفة وغير مزخرفة ، ومصورة وغير مصورة ، ومشروحة وغير مشروحة ، والبعض الآخر ترجمات متنوعة لأدباء مختلفين ، هذه شعرية ، وأخرى نثرية ، وهذه منقولة بتصرف ، وتلك بدون تصرف ، وهذه

مترجمة عن النسخة الأوسلية ، وتلك عن النسخة الكلكتية إلخ إلخ . وكنت أدخل المكاتب التجارية فرقاً لها عن مكاتب المطالعة وأطلب « رباعيات الخيام » والإنكليز يعرفون قيمة الوقت وقيمة الدينار فأبادَر بمثل الأسئلة الآتية : أتريدها مزخرفة أم « طبعة بسيطة » ؟ وهل تريدها مزينة بالرسوم أو بدون رسوم ؟ وأية ترجمة تريد ؟ بقلم فتزجرلد أم غارنر أم ميكارثي أم هوينفيلد ؟ . . إلى آخر ما هنالك من الاستفهامات التى لا بد منها في أمر كتاب كثرت أنواعه واختلفت أذواق طلابه وتفاوتت ، اختلافهم وتفاوتهم في ذات الجيب .

وإليك في ختام هذا المقال أسماء البعض ، والبعض فقط ، من العمريين الذين كتبوا أو نظموا وقرأت نثرهم وشعرهم العمريّ واعتمدتهم واستعنت بهم في درس عمر ورباعياته : فمنهم إدورد هرون ألن وإدورد برون ، ونيكلسن ، وشيرازي ، وهوينفلد ، وغارنر ، وميكارثي ، وهنري فرنان ، ونيقولاس، ولوران تايلاد ، وجارسان دي تسي ، ومسزجسي ، ومسز بورين . والغربيات اللواتي صرفنَ ذكاءهن إلى درس هذا الأثر الفارسي كثيرات .

أما فتزجرلد فلم أجعله حلقة من هذه السلسلة ، لأن ترجمته محور تدور عليه تآليف متعددة لأدباء كثيرين . وكذلك لم أذكر أحداً من الألمان ، لأني لجهلي الألمانية لم أطالع ما كتبوا ، وما أنا إلا مشير إلى من اطلعت على مؤلفاتهم الخيامية من الإنكليز والأميركان والفرنسيس . ولعله كان يحسن بي أن أذكر بعض المصورين الذين زينوا الرباعيات بالرسوم الخيالية الممثلة لمعانيها أحسن تمثيل ، ولكنني أختص منهم بالذكر جلبرت جيمس الذي نال قصب السبق في مضمار الإجادة في تخييل هيئة الخيام وتصورها — وهو صاحب طراز الرسوم التي تتخلل السباعيات وقد اكتفيت بالقليل منها°

الرباعيات في اللغة العربية — السباعيات

أريد بالسباعيات هذين الموشحين اللذين عنيت بتضمينهما روح الخيام أَخْذاً عن رباعياته . وعساني لم أظلم تلك الروح بنقلها من بيت فارسي إلى بيت عربي بل من رباعيّات إلى سباعيات . فعهدي باللغتين شقيقتين تتبادلان مواطن الأفكار

° هذا للطبعتين السابقتين . رسوم هذه الطبعة بريشة عربية

ومنازل الخيال . وها الأثران الفارسيان أصلا — ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة — لا يكادان يُفرقان عن الآثار العربية أصلا . ولست لأدعي امتلاك زمام اللغتين كعبد الله بن المقفع الذي بتنا نسميه صاحب كليلة ودمنة لا ناقله أو مترجمه، وأنا لا أكاد أعرف من الفارسية حرفًا واحداً . بل جلُّ قصدي الإشارة إلى ما بذلته من الجهد وأفرغته مما في الوسع في درس الرباعيات بترجماتها المتقنة الإنكليزية والإفرنسية ، نثريّها وشعريّها وحرفيتها وغير حرفيتها .

فقد ذكرت في كلام سابق أنني وجدت في المكتبة الأهلية بلندرا ١٥٣ كتاباً في « عمر الخيام ورباعياته » . وهنا أقول إنني انتخبت من تلك الكتب ما ألفيته يسد حاجتي ويقضي لباناتي وما ودعت المكتبة شاكراً ذاكراً إلا وقد تم لي نظم مئة سباعية عدت فحذفت عشرين منها لسبب يسهل استنتاجه من مراجعة الكلام المتقدم على المكرر والدخيل تحت عنوان « الرباعيات » .

وقد ذكرت أيضًا أن منظومة فتزجرلد هي الفضلى، لأن طريقته هي المثلى ، ولأنها بمثابة محور دارت عليه دراسات ومباحث .

ولذلك فقد اتبعتها في درس الرباعيات أولا وفي نظمها وتنسيقها ثانياً وثالثاً . وتبياناً لميزة منظومته ، أقول : إن الرباعيات مرتبة في النسخ الخطية المختلفة بحسب قوافيها لا بحسب معانيها ومراميها وأغلب مترجميها ترجموها وشرحوها ، إن نثراً أو شعراً ، و بتصرف أو بدون تصرف ، رباعية رباعية . أما فتزجرلد فإنه بعد الفراغ من درسها وتفهم مغازيها و إدراك مرامي الخيام فيها ، فضُل عنده أن يجعلها ملحمة واحدة أو نشيداً وحيداً بل عقداً فريداً ؛ فكان يقدم و يؤخر في ترتيبها متوخياً تسلسل الأفكار واتساقها . فجاءت منظومته ، بفضل حسن اختياره وأصالة ذوقه ، حيث اعترف له الثقات العارفون ، وقالوا إنه لو بعث الخيام من قبره في أواسط القرن التاسع عشر وكانت نفسه نفسه ولسانه الإنكليزية لكان نظم رباعياته كما فعل فتزجرلد تماماً .

فبعد ما وثقت من أن رباعيات فتزجرلد هي نفس الدرر الفارسية منظومةً في عقد يأخذ جمال تنسيقه بمجامع العقل والقلب والنفس جميعًا ، عدت إلى تلك الكتب التي تبحث فيها وتفندها تفنيداً وتنتقدها انتقاداً وجعلت أدرسها وأطالعها بكل

تؤدة وإمعان . فكنت أقضي في سبيل الرباعية الفتزجرلدية الواحدة ثلاث ساعات أو أربعاً موازناً بينها وبين الرباعية أو الرباعيات التي تعد أصلاً لها في ترجمات هوينفلد ونيقولاس وغارنر وميكارثي ، وأعود فأستصفي معنى السباعية الواحدة من تلك المصادر جميعاً . وكنت أتوخى في جميع ذلك الحرص على تأدية المعنى الخيامي بعينه ، بل كنت أميَلَ إلى الاقتصار على اليسير من كثير ، مني إلى زيادة شيء من عندي .

وبعد ما عدت من لندرا أخذت أغتنم كل فرصة سانحة لإطلاع من أعرفه من أدباء القطرين على هـذه السباعيات فكنت ألاقي منهم من الرضاء عنها والارتياح إليها ما شجعني على طبعها ونشرها . وإني مقر بعجزي ومعترف بحداثة عهدي في حلبة الكتّاب والشعراء ، وقائل قول نسيبي معرب الإلياذة في ديباجة الكتاب : « فإن أحسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد . وإلا فحسبي أن أفتحه باباً يلجه من وفقه الله إلى سبيل السداد » .

وديع البستاني

١٥ فبراير سنة ١٩١٢

رَبِّ رُحْمَاكَ إنْ أَرَدْتَ ٱلْحِسَابَا ؛
إنَّمَا قُلْتُ مَا حَسِبْتُ صَوَابَا ؛
أَفَأَلْقَى ، عَلى يَدَيْكَ ، ٱلْعِقَابَا ؟

بَيْنَ مَنْ صَوَّرُوا ٱلْوُجُودَ سَرَابَا ،
أَنَا أَجْلُوكَ فِي ٱلْكُؤُوسِ حَبَابَا ؛

أَنَا شَيْخُ ٱلتَوْحِيدِ بَيْنَ ٱلنَّدَامَى
لاَ أُثَنِّي إنْ عَدَّدُوا ٱلْأَرْبَابَا

النشيد الاول

١

بِتُّ فِي حَانَتِي سَمِيرَ الْمُدَامِ ؛
وَقُبَيْلَ انْهِزَامِ جُنْدِ الظَّلَامِ ،
هَتَفَ الطَّيْفُ بِالنَّدَامَى النِّيَامِ :

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ ، هُبُّوا قِيَامَا ،
وَارْشُفُوهَا ، وَوَدِّعُوا الْأَيَّامَا ،

قَبْلَ أَنْ تَجْرَعُوا كُؤُوسَ الْمَنَايَا
وَتَعَافُوا ، وَالْخَمْرُ عَزَّتْ شَرَابَا

٢

حَلَّ عِيدُ ٱلنَّيْرُوزِ ، وَٱلْأُنْسُ حَلَّا ،
وَٱلنَّسِيمُ ٱلشَّافِي ، ٱلْعَلِيلُ ، أَبَلَّا ،
وَثُغُورُ ٱلْأَزْهَارِ تَرْشُفُ طَلَّا ؛

صَاحِ ، لَاحَتْ فِي دَوْحِنَا يَدُ مُوسَى ؛
صَاحِ ، مَرَّتْ بِٱلرَّوْضِ أَنْفَاسُ عِيسَى ؛

عَادَ فَصْلُ ٱلرَّبِيعِ ، وَٱلنَّفْسُ طَابَتْ ،
صَاحِ ، وَٱلْعَيْشُ وَٱلسُّلَافَةُ طَابَا

٣

وَلَيَالِي داوُودَ لَيْسَتْ تَعُودُ ؛
وَٱلْمُغَنِّي وَلَّى ، وَوَلَّى ٱلْعُودُ ،
مَعَ أَمْسِي ؛ وَٱلْيَوْمَ أَزْهَرَ عُودُ ،

فَوْقَهُ بُلْبُلٌ يُغَنِّي لِوَرْدِ ،
شَفَّهُ ٱلسُّقْمُ مِنْ غَرَامٍ وَوَجْدِ :

يَا حَبِيبًا فِي وَجْنَتَيْهِ ٱصْفِرَارٌ
عَاشَتِ ٱلْخَمْرُ ، لَا ذَبُلْتَ ٱكْتِئَابَا

٤

مَرَّ بِي عَاشِقُ ٱلْوُرُودِ ، صَبَاحَا ،
بَعْدَمَا زَارَ نَرْجِسًا وَأَقَاحَا ،
وَشَذَا ٱلرَّوْضِ مِنْ جَنَاحَيْهِ فَاحَا ؛

فَٱلرَّبِيعُ الزَّاهِي ٱلْمُعَطَّرُ وَافَى ؛
فَبِكَأْسٍ وَافُوا ، وَهَاتُوا ٱلسُّلَافَا ،

يَا نَدَامَى ، فَقَدْ تَنَدَّمَ قَلْبِي
لِرَبِيعٍ فِيهِ عَنِ ٱلْكَأْسِ تَابَا



ومقامى غصن ظليل بقفر   ورغيفان مع زجاجة خمر

كل زادى ، والأهل ، ديوان شعر

[ص ٤٩]

٥

وَرَبِيعُ ٱلْحَيَاةِ عَهْدُ ٱلصِّبَاءِ ؛
وَحَيَاتِي ، كَهٰذِهِ ٱلصَّهْبَاءِ ،
حُلْوُهَا ٱلْمُرُّ ، فَهْيَ طِبِّي وَدَائِي ؛

وَبِبَلْخٍ ، أَوْ نَيْسَبُور ، سَأَقْضِي ؛
فَدَعُونِي بَعْضَ ٱللُّبَانَةِ أَقْضِي ؛

عِيشَتِي نَشْوَتِي ؛ وَعُمْرِي شَبَابِي ؛
وَغَدًا يَدْهَمُ ٱلْمَشِيبُ ٱلشَّبَابَا

٦

وَٱرْحَمُونِي ؛ فَٱلْوَقْتُ لَيْسَ رَحِيمًا ؛
شِيمَةُ ٱلدَّهْرِ أَنْ يَظَلَّ ظَلُومًا ؛
وَٱلزَّمَانُ ٱلْغَشَّامُ يَغْشَى ٱلْغَشُومَا ؛

أَيْنَ «جَمْشِيدُ» ؟ أَيْنَ «كَايُوقَبَادُ» ؟
أَيْنَ «زَالٌ» ؟ زَالُوا ، جَمِيعًا ، وَبَادُوا ؛

وَٱذْكُرِ ٱلْوَرْدَ .. أَمْسِ ذَاعَ شَذَاهُ ،
وَٱغْتَدَى ٱلْيَوْمَ فِي ٱلنِّعَالِ تُرَابَا

٧

مُسْتَبِدُّونَ ، جاءَهُمْ مُسْتَبِدٌّ ؛
مَا لِحُكْمِ ٱلْأَيَّامِ فِي ٱلْخَلْقِ رَدٌّ ،
لاَ مَنَاصٌ مِنْهُ ، وَلاَ مِنْهُ بُدٌّ ؛

وَإِذَا « رُسْتُمٌ » دَعَاكَ لِحَرْبٍ ،
أَوْ دَعَا « حَاتِمٌ » لِأَكْلٍ وَشُرْبٍ ،

فَأَصَمَّ ٱلْمَسَامِعَ ، ٱلْبَثُّ ، فَلاَ ذَا
كَ ، وَلاَ ذَا ، مَنْ يَسْتَحِقُّ جَوَابًا

8

وَأَجِبْنِي ؛ وَوَافِنِي لِاُعْتِزَالِ ،
وَابْتِعَادٍ عَنْ كُلِّ قِيلٍ وَقَالِ ؛
رُبَّ قَفْرٍ ، مِنَ الْمَظَالِمِ خَالِ ،

لَيْسَ فِيهِ عَبْدٌ ، وَلاَ سُلْطَانُ ،
هُوَ عِنْدِي الْمَكَانُ ، نِعْمَ الْمَكَانُ ؛

رُبَّ كَهْفٍ ، وَنَحْنُ حُرٌّ لِحُرٍّ ،
فَاقَ قَصْرًا طَالَتْ ذُرَاهُ السَّحَابَا

٩

وَمُقَامِي غُصْنٌ ظَلِيلٌ بِقَفْرٍ ؛
وَرَغِيفَانِ مَعْ زُجَاجَةِ خَمْرٍ ،
كُلُّ زَادِي ؛ وَالْأَهْلُ ، دِيوَانُ شِعْرٍ ،

وَحَبِيبٌ ، يَهْوَاهُ قَلْبِي الْمُعَنَّى ،
بِشَجِيٍّ ، يُذِيبُنِي ، يَتَغَنَّى ؛

هٰكَذَا ، أَسْكُنُ الْقِفَارَ نَعِيمًا ،
وَأَرَى هٰذِهِ الْقُصُورَ خَرَابَا

١٠

بَعْضُهُمْ ، أَرْضُهُ السَّمَاءُ ؛ وَبَعْضُ ،
نَاسِكٌ زَاهِدٌ لَهُ ٱلْأَرْضُ أَرْضُ ،
وَتُقَاهُ ، وَٱلدِّينُ ، دَيْنٌ ، وَقَرْضُ ؛

وَأَنَا قَانِعٌ بِبِنْتِ ٱلْحَانِ ،
وَلَكَ ٱلْحُورُ فِي فَسِيحِ ٱلْجِنَانِ ؛

حَبَّذَا ٱلنَّقْدُ فِي يَدِي ؛ لَا أُرَابِي ؛
لَا رَعَى ٱللهُ مَنْ أَدَانَ وَرَابَى

١١

يَا فُؤَادي ، حَذارِ . . حَتَّى ٱلنَّسيما ؛
إنَّ هٰذَا ٱلْمَنْثُورَ ، كَانَ نَظِيمًا ،
فَوْقَ غُصْنٍ ؛ وَٱلْيَوْمَ غَشَّى ٱلْأَديما ؛

كَانَ وَرْدًا ، جِلْبَابُهُ ٱلْأَكْمَامُ ،
يُوسُفِيًّا ، لَهُ ٱلْحَيَاءُ لِثَامُ ؛

رَاوَدَتْهُ رِيحُ ٱلشَّمَالِ . . وَهَمَّتْ . .
لا لِثَامًا أَبْقَتْ ، وَلاَ جِلْبَابَا

١٢

يَا نَدِيمِي ، بَدِّدْ شُجُونَ ٱلصُّدُورِ ،
بِمُدَامٍ وَرْدِيَّةٍ فِي ٱلْخُمُورِ ؛
وَدَعِ ٱلْهَمَّ وَٱلْبِلَى لِلْقُبُورِ ؛

فِي ٱلْقُبُورِ ٱلنُّزُولُ ، وَعْدٌ أَكِيدٌ ؛
وَتُرَابًا ، تَحْتَ ٱلتُّرَابِ ، تَعُودُ ؛

لَسْتَ ، يَا رَاجِيَ ٱلْمَآبِ بِكَنْزٍ
نَبَشَ ٱلنَّابِشُونَ عَنْهُ فَآبَا

١٣

دَارُنا ، خَيْمَةٌ ، بِعُرْضِ القِفارِ ،
ذَاتُ بَابَيْنِ ، مِنْ دُجًى وَنَهارِ ؛
نَحْنُ فِيها ما بَيْنَ غادٍ وَسارِي ؛

أَوْ بَلَاطٌ ؛ وَمِثْلُ «بَهْرَامَ جُورِ» ،
أَلْفُ «جَمْشِيدَ» ، مِنْ أَنامِ القُصُورِ ،

حِينَ جاؤُوا ، جَاؤُوا مُلوكاً ؛ وَلَمَّا
ذَهَبُوا ، كَالأَنامِ كَانُوا ذَهَابَا

١٤

قَصْرُ «جَمْشِيدَ»، مَجْمَعُ النُّدْمَانِ،
صَارَ كِنًّا لِلْخِشْفِ فِي الصَّحْصَحَانِ،
وَمَقِيلًا لِلضَّبِّ وَالثُّعْلُبَانِ؛

«وَابْنُ جُورَ» الصَّيَّادُ صِيدَ، وأُرْدِي،
وَمِنَ الْعَرْشِ حُطَّ حَطًّا لِلَحْدِ؛

بَقَرُ الْوَحْشِ فَوْقَهُ رَائِحَاتٌ
غَادِيَاتٌ، تَجْتَاحُهُ أَسْرَابَا

١٥

رُبَّ قَصْرٍ طَالَتْ ذُرَاهُ ٱلسَّمَاكَا ،
وَتَرَاءَتْ قِبَابُهُ أَفْلَاكَا ؛
وَمُلُوكٍ كَانَتْ تَخِرُّ هُنَاكَا ،

وَجِبَاهٍ تَعْنُو عَلَى ٱلْأَعْتَابِ ،
بِوَقَارِ ٱلْعُبَّادِ فِي ٱلْمِحْرَابِ ؛

وَهُنَاكَ ، ٱلْيَوْمَ ، ٱلْحَمَامُ يُنَادِي
يُوسُفاً ، وَٱلْغُرَابُ يَدْعُو ٱلْغُرَابَا

١٦

أَيُّهٰذا ٱلنَّدِيمُ ، جَامِيَ مُتْرَعْ ،
مُرْجَفٌ ، فِي يَدِي ، لِمَا أَتَوَقَّعْ ،
بَعْدَ مَاضٍ مَضَى؛ وَصَبْرِي مُضَعْضَعْ ؛

فَٱسْقِنِي ٱلْيَوْمَ مُذْهِبَ ٱلْحَسَرَاتِ ؛
لَا تَكِلْنِي لِحُلْمِ يَوْمٍ آتِ ؛

فَغَدًا .. رُبَّمَا غَدَوْتُ طَرِيدَ ٱلْ
أَمْسِ ، أَطْوِي ٱلْأَجْيَالَ وَٱلْأَحْقَابَا

١٧

كَمْ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْجَلِيسَ ٱلْأَنِيسَا،
كُلَّمَا شَعْشَعَ ٱلنَّدَامَى ٱلْكُؤُوسَا
كَمْ حَبِيبٍ. سَلِ ٱلثَّرَى وَٱلرُّمُوسَا؛

وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَدَّعُونِي،
وَأَسًى يُلْهِبُ ٱلْحَشَا أَوْدَعُونِي؛

فَرَغَ ٱلْبَيْتُ؛ وَٱلْمَقَابِرُ مَلْأَى؛
وَٱلْعُيُونُ ٱلْمَلْأَى تَفِيضُ ٱنْسِكَابَا

١٨

هَا غَمَامُ ٱلسَّمَاءِ يَسْكُبُ سَكْبًا ،
كَٱلأُحِبَّا ، عَلَى قُبُورِ ٱلأَحِبَّا ،
عَبَرَاتٍ يَزْهُو بِهَا ٱلْمَرْجُ خِصْبًا ؛

وَكَمَا شَاقَنَا ، وَرَاقَ ، عِيَانَا ،
زَهْرُ رَوْضٍ نَرْنُو إِلَيْهِ ٱلآنَا ،

لَيْتَ شِعْرِي، إِذْ نَحْنُ، فِي ٱلرَّوْضِ، زَهْرٌ
مَنْ عُيُونٌ تَرُوقُهَا إِعْجَابَا ؟

١٩

حَيْثُ تَلْقَى الْوَرْدَ النَّضِيرَ الْجَمِيلَا ،
فَمَلِيكٌ هُنَاكَ خَرَّ قَتِيلَا ؛
فَاْدْرِ إِمَّا قَبَّلْتَ خَدًّا أَسِيلَا ؛

وَلَكَمْ خِلْتَ مَا اقْتَطَفْتَ الْبَنَفْسَجْ
ضَاعَ عِطْرًا مَا بَيْنَ شَوْكٍ وَعَوْسَجْ

وَهْوَ خَالٌ نَامٍ بِخَدِّ فَتَاةٍ
بَدْرِ حُسْنٍ فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ غَابَا

٢٠

وَثُغُورُ ٱلأَزْهَارِ ، يَا ذَا ٱلْحَبِيبُ ،
مِنْ ثُغُورٍ لَأْلَاؤُهَا مَحْجُوبُ ؛
لَكَ قَلْبٌ ؛ وَفِي ٱلأَدِيمِ قُلُوبُ ؛

خَفِّفِ ٱلْوَطْءَ فَوْقَ هٰذَا ٱلنَّبَاتِ ؛
وَٱرْحَمِ ٱلنَّجْمَ ؛ مِنْ صُدُورِ ٱلْبَنَاتِ ،

نَجْمَ ٱلنَّبْتُ ؛ طَابَ نَوْمُ ٱلْعَذَارَى ؛
لَا مُفِيقٌ مِنْهُ بِهِنَّ أَهَابَا



خفف الوطء فوق هذا النبات   وارحم النجم ، من صدور البنات ...

[ص ٦٠]

٢١

لَا تَدَعْ لِلأَسَى إِلَيْكَ سَبِيلَا ؛
لَا يَكُ ٱلهَمُّ فِي ٱلْفُؤَادِ النَّزِيلَا ؛
وَٱغْتَنِمْهَا ؛ فَالْعُمْرُ لَيْسَ طَوِيلَا ،

وَتَرَدَّدْ إِلَى ضِفَافِ ٱلْمَجَارِي ،
وَتَوَدَّدْ لِلْمَعْشَرِ ٱلأَزْهَارِ ،

فَقَلِيلٌ مَا أَنْتَ تَرْكَبُ أَرْضًا
فِي دُجَى جَوْفِهَا تُطِيلُ ٱغْتِرَابَا

٢٢

وَلِأَهْلِ الْيَقِــــينِ وَالْإِيمَانِ
وَلِأَهْلِ التَّشْكِيكِ فِي الأَدْيَانِ ،
وَلِأَهْلِ الأُولَى ، وَأَهْلِ الثَّانِي ،

هَاتِفُ الْغَيْبِ فِي الدُّجُنَّةِ قَالَا :
قَدْ ضَلَلْتُمْ فِي الْعَالَمِينَ ضَلَالَا ،

لَا هُنَا أَنْتُمُ كَسَبْتُمْ ثَوَابًا
لَا . وَلَنْ تَكْسِبُوا ، هُنَاكَ ، ثَوَابَا

٢٣

وَلَكَمْ قَامَ فِي ٱلْوَرَى مِنْ حَكِيمٍ ،
وَخَطِيبٍ ، وَفَيْلَسُوفٍ عَظِيمٍ ،
وَأَتَوْنَا بِكُلِّ قَوْلٍ عَقِيمٍ ؛

وَهُمُ ٱلآنَ فِي ٱلثَّرَى سَاكِنُونَا ،
بَعْدَمَا أَقْلَقُوا الدُّنَى ، صَامِتُونَا ؛

رُبَّ قَوْلٍ قَالُوهُ ، كَانَ هَوَاءً
بِهَوَاءٍ ، فِي ٱلسَّمْعِ رَنَّ خِطَابَا

٢٤

وَحَدِيثٌ عَهْدٌ بِهِ كُنْتُ حِدْثًا ،
لِمُلُوكِ ٱلْكَلَامِ دَرْسًا وَبَحْثًا ؛
وَلِتِلْكَ ٱلْعُهُودِ آثَرْتُ نَكْثًا ،

حِينَ قَالُوا : كَٱلْمَاءِ نَحْنُ أَتَيْنَا ،
وَكَرِيحٍ ، أَدْرَاجَهَا ، إِنْ مَضَيْنَا ،

هَبْكَ فِي الماءِ رَمْزًا « حَيَوَانًا »
فَبِجَوْفِ ٱلثَّرَى تَغِيضُ ٱحْتِجَابًا

٢٥

فِي سَبِيلِ ٱلْأَسْرَارِ وَٱلْأَلْغَازِ ،
ذَاتَ يَوْمٍ حَاَّمْتُ تَحْلِيقَ بَازِي ،
فِي سَمَاءِ ٱلْمَعْنَى ٱلْخَفِيِّ ٱلْمَجَازِي ؛

وَلِحَيْنِي ، لَمْ أَلْقَ فِى ٱلْأَفْلَاكِ ،
لِي قَرِينًا فِي ٱلْفَهْمِ وَٱلْإِدْرَاكِ ؛

عُدْتُ بِالسِّرِّ بَعْدَمَا ٱجْتَزْتُ ذَاكَ ٱلْ
بَابَ ، مِثْلِي ، لَمَّا طَرَقْتُ ٱلْبَابَا

اليوم

٢٦

كُلُّ عُمْرِي ، كَالْمَاءِ فِي الأَنْهارِ ،
أَوْ كَرِيحٍ حَيْرَانَةٍ فِي الصَّحَارِي ،
وَمَسَائِي مِنِّي كَصُبْحِ نَهَارِي ؛

وَلِيَوْمٍ مُذْ بَانَ لَسْتُ أَرَاهُ ،
وَلِيَوْمٍ لَعَلَّنِي أَلْقَاهُ ،

لَمْ أُسْمْهَا حَمْلَ الْهُمُومِ ؛ وَعُمْرِي ،
لِسِوَى الْيَوْمِ ، ما حَسَبْتُ حِسَابَا

٢٧

مَا بِرَأْيِي أُقْدِمْتُ هٰذِي الدِّيَارَا ؛
وَسَأُضْطَرُّ لِلرَّحِيلِ اضْطِرَارَا ؛
وَاخْتِيَارِي ، إِنِ اسْتَطَعْتُ اخْتِيَارَا ،

بِنْتُ كَرْمٍ صَهْبَاءُ تَجْلُو الْهُمُومَا
فِي حَيَاةٍ مَلْأَى أَسًى وَغُمُومَا ؛

فَأَدِرْهَا سُلَافَةً ، وَاسْقِنِيهَا
نِعْمَةً ؛ فَالْوُجُودُ كَانَ مُصَابَا

٢٨

زُحَلٌ كَانَ مَوْطِنِي إِذْ رَحَلْتُ
بِخَيَالِي ، وَفِي الثُّرَيَّا حَلَلْتُ ،
وَصِعَاباً مِنَ الْقَضَايَا حَلَلْتُ ،

وَاجْتَلَيْتُ الأَسْرَارَ وَالْمُبْهَمَاتِ
مِنْ أُمُورِ الأَنَامِ وَالْكَائِنَاتِ

غَيْرَ سِرِّ الآجَالِ وَالْمَوْتِ فِيهَا ؛
ذَاكَ سِرٌّ لَمْ أَنْضُ عَنْهُ النِّقَابَا

٢٩

يَا بَنِي أَرْبَعٍ وَسَبْعٍ إلاما،
تُخْرِجُونَ الْأَلْبَابَ وَالْأَفْهَامَا،
وَتَزِيدُونَ عِلْمَنَا أَوْهَامَا ؟

بَعْدَ أَلفٍ، سَبْعِينَ سَبْعاً، مِرَارًا،
قُلْتُ قَوْلاً أُعِيدُهُ تَكْرَارًا:

لَا السَّمَا أَرْجَعَتْ وَلَا الْأَرْضُ رَدَّتْ
رَاحِلاً فَاتَ أَهْلَهُ وَالصِّحَابَا

ناس ، فطين

٣٠

وَكَأَنِّي بِالْكُوزِ قَدْ كَانَ صَبًّا ،
مُبْعَدًا ، آمِلاً دُنُوًّا وقُرْبًا ،
هَائِمًا مَائِتًا غَرَامًا وَحُبًّا ؛

وَكَأَنِّي بِعُرْوَتَيْهِ ذِرَاعَا
عَاشِقٍ ضَمَّ مَنْ أَحَبَّ وَدَاعَا ؛

صَاحِ ، هٰذَا الْمَصِيرُ : نَاسٌ ، فَطِينٌ ،
فَأَوَانٍ ، لاَ تَعْرِفُ الْأَصْحَابَا

٣١

أَمْسِ ، أَبْصَرْتُ جَارَنَا الْخَزَّافَا ،
يَجْبُلُ الطِّينَ ، كَيْفَ شَاءَ ، اعْتِسَافَا ،
وَيَكِيلُ الْمِقْدَارَ مِنْهُ جُزَافَا ؛

وَكَأَنِّي سَمِعْتُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ ،
صَوْتَ حَيٍّ يَبْكِي وَيَدْعُو عَلَيْهِ :

وَيْكَ ، رِفْقًا ، فَأَنْتَ طِينٌ وَمَاءٌ ؛
لَتَذُوقَنَّهُ ، عَـــــذَابِي ، عَذَابَا

٣٢

أَيُّهٰذا ٱلْخَزَّافُ ، قَدْ فُقْتَ حِذْقَا ؛
وَلَقَدْ فُزْتَ فِي ٱلصِّناعَةِ سَبْقَا ؛
لَكَ صِيتٌ يذيعُ غَرْبًا وَشَرْقَا ؛

لٰكِنِ ٱرْفُقْ ؛ فَسَوْفَ تَطْلُبُ رِفْقَا ،
مِنْ حَرِيفٍ ، تَزُولُ أنتَ ، وَيَبْقَى ؛

فَبَقَايَا ٱلأَسلافِ مَا أَنتَ مِنْهُ
صانِعٌ ما يُحَيِّرُ ٱلْأَلْبابَا

٣٣

اسق الأرض

لَيْسَ هَذْرًا مَا أَهْرَقَتْهُ ٱلسُّقَاةُ ،
لِنَدَامَى قَبْلِي ، وَقَبْلَكَ مَاتُوا ؛
إِنَّمَا ٱلتُّرْبُ ، يَا نَدِيمُ ، رُفَاتُ ؛

فَلْيُرِيقُوا ؛ وَلْتَنْزِلِ ٱلْقَطَرَاتُ ،
فِي كُبُودٍ حَرَّى بِهَا ٱلْحَسَرَاتُ ؛

لَكَ أَجْرٌ فِي قَطْرَةِ ٱلْخَمْرِ تُطْفِي
لَوْعَةً فِي ٱلثَّرَى تَوَجُّ ٱلْتِهَابَا

قبل الزوال

٣٤

عَدَمٌ آخِرِي ؛ وَمِنْ أَفْرَاحِي ،
بِوُجُودِي فِي قُرْبِ زَيْنِ ٱلْمِلَاحِ ،
بِتُّ سَكْرَانَ بِٱلْهَوَى وَالرَّاحِ ؛

لَيْسَ هٰـذَا ٱلْخَيَّامُ إِلَّا خَيَالاً ؛
سَيَزُولُ ٱلْخَيَّامُ ، فَاُحْسُبْهُ زَالاَ ؛

لَكَ نَفْسٌ ، لَا شَيْءَ إِنْ زُلْتَ عَنْهَا ؛
فَاُصْطَحِبْهَا ، قَبْلَ ٱلزَّوَالِ ، اُصْطِحَابَا

٣٥

فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلزَّرْقاءِ ساقٍ يطُوفُ ،
وَعَلَيْهِ مِنَ ٱلظَّـلامِ سُجُوفُ ؛
وَالنَّدامَى عِنْدَ ٱلسَّماءِ ضُيُوفُ ؛

هُوَ ساقٍ يُطاعُ ، فاشْرَبْ ، مُطِيعًا ،
مِنْ يَدَيْهِ ، ولا تَنهَدْ جَزُوعًا ؛

تِلْكَ كَأسُ ٱلمنُونِ ؛ كُلُّ النَّدامَى
شارِبُوها ، ففاقِدُوه صَـوابًا

الساقي الأكبر

٣٦

أيُّهذا الخيّامُ هذي السَّماءُ ،
يتولّاكَ حُكْمُها والقضاءُ ،
فتولَّي ، وللوجودِ البقاءُ ؛

وجنابُ السّاقي المخلَّدُ يملأ
كأسَ هذا الوجودِ ندًّا ومثلا ؛

حَبَبُ الكأسِ ، عندهُ ، ألفُ ألفٍ
مثلُ خيّامِهِ المضيءِ شِهابا



أيهذا الخزاف قد فقت حذقا   ولقد فزت فى الصناعة سبقا

[ص ٧٢]

٣٧

أَعَلَى ٱلْكَوْنِ نَابَكَ ٱلْوَسْوَاسُ ؟
لَا عَلَى ٱلْكَوْنِ ، بَلْ عَلَيْنَا ٱلْبَاسُ ؛
نَحْنُ نَمْضِي ، وَٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَرْضِ نَاسُ ؛

وَدِيَارُ ٱلْوُجُودِ ، أَيُّ دِيَارٍ ؛
لَمْ تَكُنْ ، قَبْلَنَا ، بِذَاتِ ٱفْتِقَارٍ ،

لَا وَلَا ، بَعْدَنَا ، تَتِيهُ ٱفْتِخَارًا
بِٱلْأُلَى ، دُونَهُمْ ، نَذُوقُ ٱلصَّابَا

٣٨

صَاحِ ، هٰذِي قَوافِلُ الأيَامِ ،
تَنْهَبُ العُمْرَ ؛ فَاسْتَجِرْ بِالْمُدامِ ،
وتَمَلَّصْ مِنْ حِيلَةٍ ، وَاهْتِمَامِ ،

لِغَدٍ فِيهِ سَوْفَ يُبْكَى عَلَيْنَا ؛
وقَلِيلٌ مِنَ الزَّمانِ لَدَيْنَا ؛

فَاغْتَنِمْهُ ؛ واسْكُبْ ، وهَاتِ ، وخُذْهَا ؛
وانْتَهِبْ فُرْصَةَ الْبَقَاءِ انْتِهَابا

٣٩

نَفَسٌ . . بَيْنَ شَكِّنَا وَالْيَقِينِ ؛
نَفَسٌ . . بَيْنَ كُفْرِنَا وَالدِّينِ ؛
كَمْ نَفِيسٍ غَالٍ ، وَكَمْ مِنْ ثَمِينِ ،

دُونَهُ ، قِيمَةً . . فَهَمْ نَتَمَتَّعْ ،
قَبْلَمَا يَنْزِلُ الْقَضَاءُ ؛ فَيُقْطَعْ ؛

لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا
نَفَسٌ وَاحِدٌ يُبَتُّ اقْتِضَابَا

٤٠

حَدَّثَتْني نَفْسي، وقالَتْ، فُضُولا:
عَلَّمَتْني الْمَعْلُومَ والْمجْهُولا،
إنْ تَكُنْ عالِماً بِسِرِّ الْهَيُولَى؛

«ألِفٌ» قُلْتُ؛ قالَتِ النَّفْسُ: يَكْفي؛
إنَّ سِرَّ الأسْرارِ أوَّلُ حَرْفِ؛

واحِدٌ، واحِدٌ، هُوَ الْكُلُّ في الْكُلِّ؛
وَحَرْفٌ، سِفْراً حَوَى وكِتابا

النشيد الثاني

٤١

أَقْبَلَ الْفَجْرُ ، بِبَهْجَةٍ يَتَلالا ؛
فَاطْرِحْ عَنْكَ بَحْثَهُمْ والجِدَالا ؛
لا تَزِدْ مُشْكِلاتِنا إشْكالاً ،

وإذَا مَا الحَبيبُ لاحَ ومالاَ ،
بَعْدَ مَا جَدَّلَ الشُّعُورَ الطِّوالاَ ،

فَلْتَكُنْ طُرَّةُ الحَبِيبِ يَمِيناً
مِنْكَ، والكَأسُ، مِنْ يَدَيْكَ، شِمالاَ

٤٢

التعليل اعتلال

صاحِ ، دَعْهُمْ يُعَلِّلُونَ الْوُجُودَا ،
وَيُمَارُونَ ، قُوَّماً ، وقُعُودَا ؛
فَنَدَ الْجَهْلُ رَأْيَهُمْ تَفْنِيدَا ؛

قَطَفُوا الْكَرْمَ حِصْرِماً ، أَوْ زَبِيباً
جَفَّفُوهُ ، وَلَمْ يَذُوقُوا الْعَجِيبَا

رُوحَ بِنْتِ الْكَرْمِ الزَّكِيَّةِ ؛ فَلَيْـ
ـتَهُ عَقْلُ الْمُعَلِّلِينَ اعْتِلَالَا

٤٣

إنَّ عَقلي ، ضَياعُ عَقلي ؛ ودِيني ،
قِلةُ الدِّين ؛ واحِدٌ يَكفيني ؛
بَعدَ شَكّي ، في الْخَمْرِ جاءَ يَقيني ؛

وثَلاثًا ، دِيني وعَقْلي ، بَتاتًا ،
بِتُّ طَلّقتُ ؛ فَاخْطُبُوا لي الْفَتاتا ،

بِنْتَ كَرْمٍ ؛ وَكُنْتُ أشْرَبُ رَطْلاً ،
فَاجْعَلوهُ في عُرْسِنا أرْطالاً

44

أَتُرَاهُمْ ، وَقَدْ تَوَلَّتْ قُرُونُ ،
أَعْجَزَتْهُمْ كَافٌ وَوَاوٌ وَنُونُ ؟
صاحِ ، إنْ تَتْبَعِ الْحَيَاةَ الْمَنُونُ ،

فَقُلِ: الْكافُ، كَافُ سُكْرِ الرَّحِيقِ؛
وَقُلِ : النُّونُ ، نُونُ نَوْمٍ عَمِيقِ ؛

وَقُلِ: الْوَاوُ ، عِلَّةٌ ؛ هِيَ وَاوُ الْـ
مَوْتِ؛ واهًا ؛ كَمْ غَيَّرَتْ أَحْوَالاَ

٤٥

وَالسَّمَاوَاتِ . . . لاَ تَعُدَّ وَتَدْعُ ؛
فَثَمَانٍ ، إنْ قُلْتَ ، أوْ قُلْتَ ، سَبْعُ ،
لَيْسَ فِيهِنَّ ، يَا أَخَا الْعَيْشِ ، سَمْعُ ؛

خَلِّ عَنْكَ الْقَضَاءَ وَالأَقْدَارَا ؛
سَوْفَ تَقْضِي ، وَمَا تَقَدَّرَ صَارَا ؛

يَوْمُكَ الْيَوْمُ ؛ أَمْسِ وَلَّى ، وَأَنَّى
لَكَ مِنْهُ ، أَوْ مِنْ غَدٍ ، أَنْ تَنَالاَ

٤٦

فِي خُمَارِي أبْصَرْتُ أنْ مَرَّ قُرْبِي ،
شَبَحٌ ، حُبُّهُ تَمَلَّكَ قَلْبِي ؛
فَتَدَانَى ، وقَال : تَشْرَبُ نَخْبِي ؛

رَحِمَ اللهُ كُلَّ مَنْ قَال شِعْرًا ؛
رَحِمَ اللهُ كُلَّ مَنْ ذَاقَ خَمْرًا ؛

هٰكَذَا قَالَ لِي خَيَالُ حَبِيبِي ؛
وبِصَحْوِي ، ضَيَّعْتُ ذَاكَ الْخَيالَا

٤٧

صَاحِ ، خَلِّ الثِّنْتَيْنِ والسَّبْعِينا
مِلَّةً تَنْشُدُ الْهُدَى أَجْمَعِينا ؛
وَاشْفِ دَاءً فِي جَانِبَيْكَ دَفِينَا ؛

واتَّبِعْ مِلَّتِي ؛ وَحَسْبُكَ مِلَّهْ ؛
كَأْسُ خَمْرٍ تَشْفِيكَ مِنْ أَلْفِ عِلَّهْ ؛

كِيمِيَاءٌ تُرْضِيكَ ؛ فَاشْرَبْ ، وَحَوِّلْ
حَالَ بُؤْسٍ نُعْمًى ، يَسُرُّكَ حَالَا

بين النقيضين

٤٨

رَبِّ ، رُحْمَاكَ ، ثُمَّ رُحْمَاكَ ، رَبِّي ؛
بَيْنَ مَيْلٍ ووازِعٍ حَارَ لُبِّي ؛
أَيَّ دَاعٍ أَعْصِي ؟ وأَيًّا أُلَبِّي ؟

أَنْتَ كَوَّنْتَهَا ، فَكَانَتْ كُمَيْتَا ؛
ثُمَّ عَنْ حُسْنِهَا الْبَدِيعِ نَهَيْتَا ؛

فَكَقَوْلِي: أَنِ اقْلِبِ الْكَأْسَ يَاسَا
قِي ، وَلَكِنْ لَا تُهْرِقِ السَّلْسَالَا

٤٩

أمِنَ الحَقِّ هَجْرُ بِنْتِ الدِّنانِ ،
والتَّصَابِي لِلْحُورِ والوِلْدَانِ ؟
هَاهُنَا ، هَاهُنَا ، أنا ، فاسْقِيانِي !

أيَرُدُّ الظَّمْآنُ مَاءً زُلالاَ ،
ويُنَاجِي سَرَابَهُ والآلاَ ؟

أيُّ بَأْسٍ أنْ تُسْكِرَانِيَ حَالاَ
إنْ نَكُنْ سَوْفَ نَسْكَرُ اسْتِقْبَالا ؟

٥٠

عَبْدُ حُسْنٍ ، وعَابِدُ الصَّهْبَاء ،
فى نَعِيمٍ مِنْ جَنَّةٍ وسَمَاء ،
لاَ الْمُرَائِي ؛ فَالنَّارُ مَثْوَى الْمُرَائِي ؛

ولَئِنْ صَحَّ أَنَّنَا — الْعُشَّاقَا ،
والنَّدَامَى — هُنَاكَ لَنْ نَتَلاَقَى ،

عَمْرَكَ اللهَ ، يَا نَدِيمُ ، فَقُلْ لِي :
مَنْ سِوَى اللهِ فِي السَّمَاءِ تَعَالَى ؟



فلتكن طرّة الحبيب يميناً منك والكأس من يديك شمالا

[ص ٨٣]

٥١

مِنْ تَعَالِيمِ دَيْرِهِمْ والْكَنِيسِ ،
وتَسَابِيحِ صَوْمَعِيٍّ حَبِيسِ ،
وشُرُوحِ الأَشْيَاخِ فِي التَّدْرِيسِ ،

ووُعُودٍ مَقْرُونَةٍ بِوَعِيدِ ،
هَاكَ مَحْضَ الْيَقِينِ بِالتَّوْكِيدِ :

إنْ ذَوَتْ زَهْرَةُ الْخُزَامَى وماتَتْ
كَانَ إحْيَاؤُهَا الْمُحَالَ الْمُحَالَا

٥٢

عنْ سُرَاةٍ ، بَانُوا ، سَأَلْتُ الدِّيارَا :
مَنْ رَسُولٌ يَرْوِي لنَا أَخْبارَا ؟
قَالَ لِي الْحَيُّ : لَوْ سَأَلْتَ الْحِجارَا !

فتَمَتَّعْ ؛ ولاَ تَدَعْ فِي الرُّبُوعِ ،
مِنْ عَرَارٍ تَلْقاهُ بَعْدَ الرُّجُوعِ ؛

لاَ رُجُوعٌ ؛ ولاَ مَحالَةَ ، إنَّا
تَارِكُوها ، ومُزْمِعُوهُ ارْتِحالا

٥٣

سَادَةُ ٱلْفَضْلِ وَٱلْحِجَا وَٱلْعُلُومِ ،
وَشُمُوعُ ٱلْهُدَى بِلَيْلٍ بَهِيمِ ،
بِالْأَسَاطِيرِ ، وَٱلْحَدِيثِ ٱلْقَدِيمِ ،

حَدَّثُونا . وَاسْتَغْرَقُوا فِي السُّبَاتِ ،
وَاضْمَحَلُّوا فِي دَامِسِ الظُّلُمَاتِ ؛

ما اهْتَدَيْنَا ؛ وَلاَ هُدِينَا ؛ وَكُنَّا
فِي ضَلاَلٍ كَافٍ ، فَزِدْنَا ضَلاَلاَ

٥٤

كَيْفَ، يا رُوحُ، تَلْبَسِينَ الْهَوانا،
أَنْ لَبِسْتِ الأَجْسادَ والأَبْدانا ؟
فَاخْلَعِيها، ثَوْبَ الْبِلَى، أَكْفانا ؛

مَزِّقِي اللَّحْمَ والْعِظامَ، وعُودِي،
لِدِيارِ الْعُلَى وعَرْشِ الْخُلودِ ؛

بِئْسَ هذا الْجُثْمانُ لِلرُّوحِ دارًا
حَيْثُ تَشْقَيْنَ غُرْبَةً واعْتِقالا

٥٥

أَيُهذا الْخَيَّامُ ، مَا الأَجْسَامُ ،
لِلنُّفُوسِ — الأَرْوَاحِ — إِلَّا خِيامُ ؛
وَلِحِينٍ ، إِنْ طَابَ فِيها الْمُقَامُ ؛

ثُمَّ يَهْجُرْنَها إِلَى « لَا مَـكَانَا » ؛
ثُمَّ هٰذَا الْخَيَّامُ يُصْبِحُ « كَانَا » ؛

وبِتِلْكَ الأَطْنَابِ يَنْزِلُ مِقْرَا
ضَانِ ، حَتْماً ، مَا أَخْلَفَا آجَالَا

الجنة والنار

٥٦

قُلْتُ : يَا نَفْسُ ، أَيْنَ مِنِّي الْقَضَاءُ ؟
أَيْنَ مِنْكِ الْجَحِيمُ ، أَيْنَ السَّمَاءُ ؟
فَأَجَابَتْ أَمَّارَتِي الْحَوْبَاءُ :

فِيَّ ، فِيَّ ، الأَفْلاكُ وَالأَقْدَارُ ،
فِيكَ ، فِيكَ الْفِرْدَوْسُ ، فِيكَ النَّارُ :

ذَا سُؤَالِي ، وَذَا جَوَابُكِ ، يَا نَفْـ
سُ ، وَكُنْتُ الْحَيْرَانَ فِيهِ سُؤَالا

٥٧

كُلُّ شيءٍ مِنَّا ، وَفِينَا ، يَكُونُ ،
أَنَا أَوْ أَنْتَ . . كَوْنُنَا مِسْكِينُ ؛
أَدْمُعٌ ، مِنْ عُيُونِنَا ، جَيْحُونُ ؛

وشَرَارٌ ، مِنَ الْكُبُودِ ، الْجَحِيمُ ؛
وثَوَانٍ ، مِنَ السُّرورِ ، النَّعِيمُ ؛

بَيْنَ حَالَيْنِ مِنْ هَنَاءٍ وهَمٍّ
كُلُّ مَرْءٍ يَخْتَارُ لِلعَيْشِ حَالَا

٥٨

فَلَكٌ دائِرٌ ، وحَيْرَى ظِلالِ ؛
وخَيالٌ يَنْسابُ خَلْفَ خيالِ ؛
وخُذِ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِالْمِثالِ :

شَمْعَةٌ ، شَمْسُهُ ؛ ومِثْلُكَ يَدْرِي ؛
هُوَ مِثْلُ الْفانُوسِ ؛ فانُوسُ سِحْرِ ؛

صُوَرٌ ، نَحْنُ ؛ حَرَّكَتْها اللَّيالي ؛
وحَيارَى ، وكَالظِّلالِ انْتِقالا

٥٩

وارْوِ عَنِّي ، حَقيقَةً ، في الْحَقائِقْ ،
لا مَجازاً عَنْ صادِقٍ ، عَنْ صادِقْ :
فَلَكٌ لاعِبٌ ؛ ونَحْنُ الْبيادِقْ ؛

نِطْعُ هذا الوُجودِ — قَبْلَ الفِرِنْجِ —
يا أَخا الْعَيْش ، رُقْعَةُ الشِّطْرَنْجِ ؛

بَيْذَقاً ، بَعْدَ بَيْذَقٍ ، تَتْرُكُ الرُّقْـ
عَةَ ، « موتاً » ؛ ولِلْفَنا نَتَتالَى

٦٠

نَحْنُ والْعَيْشُ ، لُعْبَةُ الْجوْكان ؛
مِنْ مَكَانٍ يُرْمَى بِنَا لِمَكَانِ ،
كَيْفَمَا شَاءَهَا « أبُو صَوْلَجَانِ » ؛

نَحْنُ تِلْكَ الكُرَاتُ ؛ والْخَيَّالُ ،
قَدَرٌ ، جَلَّ قَدْرُهُ والْجَلَالُ ؛

ضَرْبَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ ، مِنْ يَدَيْهِ
نَتَلَقَّى ؛ لاَ نَسْأَلُ الْخَيَّالاَ

٦١

لَا تُعَالِجْ مُعْوَجَّهَا تَقْوِيمَا ؛
سَلِّمِ الأَمْرَ ، واحْمَدِ التَّسْلِيمَا ،
لِلَّذِي كَانَ بِالْمَصِيرِ عَلِيمَا ؛

خُطَّ مَا خُطَّ مِنْ سُطُورِ القَضَاء ؛
لَا تُحَاوِلْ إِبْدَالَ تَاء بِيَاء ؛

قَلَمٌ كَاتِبٌ ، وَرَبٌّ عَلِيمٌ
وتُرِيدُ التَّعْدِيلَ والإِبْدَالا ؟

٦٢

أمْرُنَا لِلْقَضَـــاء ؛ والدَّوَّارُ
فَلَكٌ كَادَ يَعْتَرِيهِ الدُّوارُ ؛
وَلِتِلْكَ النُّجُومُ ، والأَقْمَارُ ،

والثُّرَيَّا ، والْمُشْتَرِي ، وَالْمَجَرَّهْ ،
عَجْزُهَا ، ضِعْفُ عَجْزِنَا أَلْفَ مَرَّهْ ؛

فَإِلَيْهَا لَا تَعْزُوَنَّ سُعُودًا
أَوْ نُكودًا ، وعُدَّهَا أَمْثَالًا

٦٣

كُلُّ شيْءٍ مُسطَّرٌ ، مَكْتُوبُ ؛
ذَاكَ لَوْحٌ عَنِ الْوَرَى مَحْجُوبُ ،
فِيهِ آمَالُنَا ، وفِيه الْخُطُوبُ ؛

والْمَوَاضي ، كَمَا كُتِبْنَ ، سُطُورُ ؛
والأَوَاتِي مُقَدَّرَاتٌ تَصِيرُ ؛

لَاوُه لَاوُه ؛ بَلَاهُ بَلَانَا ؛
لَسْتَ تَمْحُو «بَلَى» لِتَكْتُبَ «لا» .. لا!

٦٤

مَا يُلَاقِيهِ مُصْبِحٌ أَوْ مُمْسِي ،
مِنْ سُعُودٍ أَوْ مِنْ طَوَالِعِ نَحْسِ ،
كَانَ فِي الْغَيْبِ قَبْلَ أَوَّلِ أَمْسِ ؛

وبِذَاكَ الْحِجابِ ، سَوْفَ تَمُرُّ ،
ووراءَ الْحِجابِ ، لِلَّهِ ، سِرٌّ ؛

سُرَّ ، واشْرَبْ ، فَسوْفَ تَمْضِي كَما جِئْتَ ، وَلَمْ تَدْرِ ، حِينَ تَمْضِي انفِصَالا

٦٥

عِنْدَمَا أُسْرِجَ الْجِيَادَ ، وَهَيَّا ،
لِعُلَى الشَّمْسِ مَوْكِباً ذَهَبِيَّا ،
وَحَبَانَا بِالْمُشْتَرِي والثُّرَيَّا ،

قَامَ فِي الغَيْبِ ، لِلْقَضَا دِيوَانُ ؛
ونَصِيبِي ، مَا رَجَّحَ الْمِيزَانُ ؛

قِسْمَتِي . . مَا تَرَوْنَ فِيَّ ومِنِّي ؛
فَاعْلَمُوا . . إنْ ذَمَمْتُمُ الأَفْعَالَا

سكير

٦٦

يَعلَمُ اللهُ أنني سِكِّيرُ ؛
وهْوَ أمرٌ عِنْدَ العَليمِ يَسيرُ ؛
ونَظيري ، بَيْنَ الكِرامِ ، كَثيرُ ؛

يَعلَمُ اللهُ ؛ يَعلَمُ اللهُ ، فِعلا ؛
رَبِّ ، حَاشَاكَ ، لَيْسَ عِلْمكَ جَهْلا ؛

فَزِقاقِي مَمْلوءةٌ ، ودِنانِي ؛
وأنَا أشْرَبُ الكؤوسَ امْتِثالا

٦٧

وكَمَا شَاءَ ، فَلْيَعُدَّ الْكَوْثَرْ ،
لِي شَرَابًا ، أَوِ السَّعِيرُ ، فَأَصْهَرْ ؛
لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، اللهُ أَكْبَرْ ؛

غَيْرَ أَنِّي أَرَى الْمُنَاجَاةَ سِرًّا ،
وابْتِهَالِي ، بَيْنَ الدِّنَانِ ، أَبَرَّا ؛

مِنْ صَلَاةٍ يَتْلُونَهَا بِقُلُوبٍ
لَا تُصَلِّي ، وَلَا تُرِيدُ ابْتِهَالَا

٦٨

أنْتَ ، يا خالِقي ، وجابِلَ طِيني ،
يا عليماً قَبلي بِسِرّي الدّفينِ ؛
مِنْكَ يُسْرايَ ، نِعْمَةً ، ويَميني ؛

مِنْكَ رُوحي ، ومِنْكَ لَحْمي وعظْمي ؛
والّذي جِئْتُهُ ، فَمِنْكَ بِحُكْمِ ؛

فَلِماذا ، يَوْمَ الْقِيامَةِ فِي النّا
رِ أعانِي ؛ فِي وَجْهِكَ ، الأهْوالا ؟

٦٩

أَنا عَبْدٌ عاصٍ ، رَجَوْتُ رِضاكا ،
وَفُؤادِي الْمُظْلِمُ رَجَّى ضِياكا ،
فَتَفَضَّلْ ، واسْكُبْ عَلَيْنا صَفَاكا ؛

رَبِّ حَاشَاكَ أَنْ تَبِيعَ النَّعِما ،
بَيْعَ سَوْءٍ ، إنْ كُنْتَ رَبًّا رَحِيما ؛

أَفَأَنْتَ الْمَدِينُ يَدْفَعُ دَيْناً ؟
أَمْ كَرِيمٌ يُعْطِي نَدًى ونَوَالا ؟

٧٠

وَلِمَاذَا نَصَبْتَهَا أشْرَاكَا ؟
أَلِأَلْقَى ، عَلَى يَدَيْكَ ، الْهَلَاكَا ؟
رَبِّ ، يَارَبِّ ، مَنْ أنَا ، لَوْلَاكَا ؟

أفَحُكْماً أقَمْتَهَا ، ثُمَّ قُلْتَا :
اُخْطُ ؛ واعْلَمْ ، أنَّى خَطَوْتَ قُتِلْتَا ؟

كُلُّ فِعْلٍ آتِيهِ ، حُكْمٌ مُطَاعٌ ؛
وبِحُكْمٍ أُطِيعُكَ اسْتِقْتَالَا



غير أنى أرى المناجاة سرّا وابتهالى ، بين الدنان ، أبرّا

[ص ١٠٩]

٧١

أَنْتَ يَا عَالِماً بِذَاتِ الصُّدُورِ ،
ومُقِيلَ الْعَبْدِ الْكَثِيرِ الْعُثُورِ ،
هَبْ لِهٰذَا النَّدْمَانِ ، قَبْلَ النُّشُورِ

تَوْبَةً حَقَّةً تَكُفُّ يَدَيْهِ ،
عَنْ كُؤُوسٍ مُشَعْشَعَاتٍ لَدَيْهِ ؛

ضَيَّقَتْ صَدْرَهُ طِوَالُ اللَّيَالِي ؛
وَبِهَا قَصَّرَ اللَّيَالِي الطِّوَالَا

٧٢

مِلءُ صَدْرِي أَوْصَابُهُ وَالْكُرُوبُ ،
يَا نَدَامَى ، وَهْيَ الدَّوَاءُ الْعَجِيبُ ؛
— طَالَ عُمْرُ النُّدْمَانِ — كَيفَ أَتُوبُ ؟

فَبِأَوْرَاقِ كَرْمَةٍ كَفِّنُونِي ؛
وَبِكَرْمٍ بَيْنَ الدَّوَالِي ادْفِنُونِي ؛

واغْسِلُونِي بِالْخَمْرِ صِرْفًا ، سُلَافًا ،
سَلْسَبِيلًا ، صَفْوًا ، زُلَالًا ، حَلَالًا

٧٣

لَاتَ يَوْمِي والْعُمْرُ سُكْرًا تقَضَّى ؛
لَمْ أُفَوِّتْ لِلْخَمْرِ ، عُمْرِيَ ، فَرْضَا
هَاتِ إبْرِيقَها ؛ وقُمْ نَتَوَضَّا

ولْيَقُولُوا إنِّي هَتَكْتُ السِّتارَا ،
وتَبَذَّلْتُ فِي عُيُونِ السُّكَارَى ؛

أَنَا نِعْمَ الْمَسْتُورُ ، أَنْ شُقَّ سِتْرِي
وتَسَرْبَلْتُ نَشْـوَتِي سِرْبَالاَ

وأنا مازح

٧٤

فِي صَبَاحِي أَقُولُ : تُبْتُ ، وَأُمْسِي ،
وَحَبِيبِي بَيْنَ الْيَدَيْنِ وكَأْسِي ؛
فَارْجُ لِي تَوْبَةً ، وَدَعْنِي بِيَأْسِي ؛

وخُذِ الْوَعْدَ ، كَالْوُعُودِ ، مِزاحاً ؛
كَيْفَ أَسْلُو ، قَبْلَ الْفِراقِ الرّاحا ؟

كَوِصالِ الْحَبِيبِ ، عُمْرِي ، لِحِينٍ ،
وزَمانٍ ؛ مَا إِنْ يَدُومُ وِصالا

٧٥

سِفْرُ هٰذِي الْحَيَاةِ ، حَانَ خِتَامُهْ ؛
وَتَدَاعَتْ بِابْنِ الخِيَامِ خِيَامُهْ ؛
وَتَدَانَتْ مِنْ حَدِّهَا أَيَّامُهْ ؛

وَلَيَالِي الرَّبِيعِ كُنَّ قِصَارَا ؛
وَهَزَارُ الشَّبَابِ غَنَّى وطَارَا ؛

يَا هَزَارَ الشَّبَابِ ، مَا كُنْتُ أَرْضَى
مِنْكَ هٰذَا ؛ تَعَالَ ، غَنِّ ، تَعَالَا

ليت

٧٦

لَيتَ شِعْرِي ، أَبَعْدَ يَوْمِ التَّنَائي
والتَّوَارِي عَنْ صُبْحِهِ والْمَسَاءِ ،
لَفْتَةٌ صَوْبَ هٰـذِهِ الْأَحْيَاءِ ؟

حُبَّ أَنِّي ، مِنْ بَعْدِ أَلْفٍ بِأَلْفِ .
مِنْ سِنِينٍ يَمْضِين كَالْأَمْسِ خَلْفِي

مِنْ تُرَابِي أُطِلُّ ، كَالنَّجْمِ ، حَيًّا
فَأُحَيِّي الرُّبُوعَ والأَطْلَالَا

٧٧

لَيتَ شِعْرِي في هٰذِهِ الأُمْنِيَّهْ :
لَوْ يُعِيدُ الرَّحْمانُ خَلقَ الْبَرِيَّهْ ،
وَأَنَا عَنْ يَمِينِهِ الْعُلْوِيَّهْ ،

لَتَضَرَّعْتُ ، قَائِلاً : لاَ يُقَدَّرْ ،
لِي وُجُودٌ، ولْيُمْحَ لِي اُسْمُ تَسَطَّرْ ؛

أَوْ ، فَقَدِّرْ لِيَ الْكَفَافَ ، فَأَرْضَى ،
وَأُهَنِّيكَ يَوْمَ أَهْنَــأُ بَالاَ

٧٨

يَا حَبِيبِي ، مَا حَيَاتِي ؟ مَا اقْتِدَارِي ؟
حُكْمُ رَبِّ الأَفْلاَكِ فِي الْكَوْنِ جَارِي ؛
وَلَوَ انِّي مُقَــدِّرُ الأَقْدَارِ ،

لاَغْتَدَى الْقَلْبُ بِالأَمَانِيِّ حُرًّا ،
لاَ يُعَانِي مِنْ «لَوْ» وَ«لَيْتَ» الأَمَرَّا ؛

وَيْحَ قَلْبِ الإِنْسَانِ ، كَمْ يَتَمَنَّى ؛
وَمُحَالٌ ، دُونَ الأَمَانِيِّ ، حَالاَ



وبكأس السّلاف ، قف فوق قبري　　واسكب الخمر فوق عشبي وزهري

[ص ١٢٢]

٧٩

يَا حبيبي مَنْ لِي سِوَاكَ ؟ وَمَنْ لِي
بَعْدِ مِثْلِ يَوْمِكَ الْمتجَلّي ؟
فَاُغْتَنِمْهُ ؛ وخَلِّ هَمَّكَ ، خَلِّ ؛

وَأَدِرْها ؛ وأُنْظُرْ أخاك ، جَمالاً ،
يَتهادَى بَيْنَ الدَّرارِي اخْتِيالا ؛

لَيْتَ شِعْرِي ، بَدْرَ السَّماءِ ، أَنَحْيا
لِنَرَى وَجْهَكَ الْجَميلَ هِلالا ؟

٨٠

يَا نَدِيمِي — وطَالَ عُمرُ النَّدِيمِ —
بَعدَ مَوْتِي ، سَقْياً لِعَهْدِي القَدِيمِ ،
بِدُمُوعِ العَذْرَاء ، بِنْتِ الكُرُومِ

وبِكَأسِ السُّلافِ ، قِفْ فَوْقَ قَبْرِي
واسْكُبِ الخَمْرَ فَوْقَ عُشْبِي وزَهْرِي

دَمْعَةً ، دَمْعَةً ، مِنَ الكَأسِ ، قَطْراً ؛
وارْحَمِ الحَيَّ ، كانَ كَوْناً ، وحَالا

تفسير *

الفاتحة مستمدة من ثلاث رباعيات مختلفة تجدها في مطلع ثلاث من النسخ الخطية ، وهي من أجمل أقواله التي يشير بها إلى إسلامه وقيامه على عبادة الواحد الأحد

٢

النيروز : كلمة فارسية مركبة معناها يوم جديد . وعيد النيروز عند الفرس كعيد رأس السنة عند كل أمة . وهو يقع في أول فصل الربيع .

أما قوله : لاحت في دوحنا يد موسى — فإشارة إلى الآية : « ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » وفي وادي خراسان نوع من الشجر يزهر دفعة واحدة مثل شجر اللوز عندنا ويكون أول الأشجار إزهاراً . والإزهار من بشائر الربيع

أما قوله : مرّت بالروض أنفاس عيسى — فاشارة إلى ما ورد

(*) الرقم رقم السباعية .

في الحديث من أن عيسى كان في صغره يلعب مع أترابه ويصنع لهم عصافير من التراب وينفخ فيها فتطير كأن نَفَسهُ أكسبها الحياة فمرور أنفاسه بالروض دلالة على بزوغ النبات وظهور الزهر

٣

المراد داوود بن سليمان الحكيم . وهو عند العرب والفرس ربّ الغناء . وبهِ يضرب المثل في الصوت كيوسف في الحسن وأيوب في الصبر

أما البلبل فهو الطائر الموصوف بطلاقة اللسان . وشعراء الفرس متقدموهم ومتأخروهم كثيراً ما يذكرونهُ كعاشق متيّم هائم في حب الورد

٥

بلخ : كانت إحدى العواصم في ولاية خراسان

ونيسابور : مسقط رأس الخيام

٦

جمشيد وكايوقباد وزال : من أبطال الفرس وملوكهم الكبار ، وأخبارهم مسرودة في الشاهنامة

٧

رستم : عند الفرس ، كهرقل عند اليونان ، مثال البأس وحب القتال ، وهو ابن زال المذكور آنفاً . وحاتم هو العربي الطائيّ الطائر الصيت بكرمه

١٣ و ١٤

بهرام : أحد ملوك الفرس الأسطوريين ، وكان مغرماً بصيد بقر الوحش (جور) فأضيف اسمه إليها

١٥

المراد بمناداة الحمام يوسفاً خلوّ القصر من السكان بعد ما كان آهلاً بهم . والعرب يعبرون عن سجع الحمام بالهديل ، إذ يقولون إنه كان للحمام ولد يدعى « هديل » وفُقد ، فالحمام ينشده حين يسجع . ويوسف : ولد الحمام عند الفرس

٢٤

زمزم : بئر حية عند الكعبة . والحيوان : الحياة . ومراده

أن كل ماءيغيض في الأرض و يحتجب ولو كان ماء زمزم المقدّس وكذلك الناس فكلهم يموت و يحجبه التراب

٣٩

الأربع : أي المواد الأربع (التراب والهواء والنار والماء) والسبع: سبع الطباق أو السماوات . و بنو الأربع والسبع : الناس

٤٠

كانت قيمة الألف في حساب الجُمَّل واحداً (١) فهي رمز إلى وحدة الله سبحانه . وألِفْ كَفَتْ في الفارسية مثل مألوف

٤٢

اتضح للخيام أن اندثار الجسم بعد الموت يكاد يكون غاية ما يمكن للإنسان أن يدركه من أسرار الكون والوجود . ولذلك تراه يتشفى من المدّعين استطلاع ما وراء الحجاب واستجلاء غوامض الآزال والآباد .

٤٣

عاش الخيام فى أيام إغراق الصوفيين وغلوّهم فى آرائهم الدينية . ولذلك فلا عجب أن نسب إلى نفسه ضياع العقل والخلوّ من الدين والميل إلى الخمرة عنهما . وكأنى به فضّل الجنون والكفر على الرياء — إن الله لا يحب المرائين

وبنت الكرم : الخمرة . والرطل والأرطال من ألفاظ الأصل الفارسي في بعض الروايات

٤٧

انقسام الشعوب إلى ٧٢ ملة قول جرى مثلاً في بلاد الفرس . وقد ذكر أحد شراح الرباعيات كلاما مرويا عن الرسول مآله : إن أمتي ستنقسم إلى ثلاث وسبعين ملة جميعها تدخل النار إلا واحدة . والخيام هنا يشير إلى الشيع والطوائف على اختلاف نزعاتها ، ويضرب على نفس الوتر الذي يضرب عليه في السباعيات السابقة

٤٩

الزلال : الصافي . والسراب : ما تراه نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء يلصق بالأرض ، وهو غير الآل الذى يُرى فى طرف النهار كأنه بين الأرض والسماء

٥١

الصومعى : نسبة إلى الصومعة ، أي الدير . والوعيد : الوعد ولكن بالشر ، فهو التهديد . والإشارة بالوعد هنا إلى الجنة ، وبالوعيد إلى دخول النار

٥٧

جيحون : نهر البكاء أو نهر الدموع ؛ ونهر بهذا الاسم

٥٩

البيذق قطعة (حجر) فى لعبة الشطرنج . و « موتاً » من قولهم « مات الشاه » أو غيره ، فى هذه اللعبة . ولا بأس بتصحيف اسمها إلى صورته المألوفة

٦٠

الجوكان : اسم لعبة فروسية فارسية . وهي لعبة « الغُلف » المغرم بها الإنكليز اليوم ، وقد أخذوها عن الفرس

٦٤

« الانفصال » مفارقة الحياة ، وله معنى خاصّ في الطريقة الصوفية ، لا حاجة لتفصيله هنا

٧٥

الهزار ، في المعجم : « طائر يغنى ألواناً » وأظنه « الكنار » ، وأحسبه من الاسم الفارسي الذي معناه « ألف حكاية » . والأصل ذكر الطير ، ولم يُسمّ

٧٦

النجم : النبت الأخضر القصير يُستَنبت في الحدائق ، لتناسب شكله ولونه .

روح الخيَّام في رباعياته(١)

بقـــلم

مصطفى لطفى المنفلوطى

صديقي الفاضل وديع أفندي البستاني

الآن فرغت من قراءة سباعياتك الجميلة التي ترجمت فيها رباعيات عمر الخيام، فلم أرَ بدًّا من أن أكتب إليك كلمة أصوّر لك فيها ما استحالت إليه نفسي من الصور عند قراءتها ، وما لا يزال باقياً عندي من الأثر بعد الفراغ منها ، فأقول :

إني وقفت بها كما يقف مسافر ضلّ به سبيلهُ في فلوات الأرض ومجاهلها بواد معشوشب زاهر في وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران ، فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوار بيضاء ، وورود حمراء ، وألوان من

---

(١) انظر الديباجة ص ٥ ، ٨

النبات ، مشتبهات وغير مشتبهات ، وغدران مسلسلة مطردة تتبسط في تلك الديباجة الخضراء ، تبسّط الشهب الثاقبة في الديباجة الزرقاء ، وأسراب من الحمائم والعصافير والكراكيّ والبلابل تتطاير من فرع إلى فرع ، وتتناثر من غصن إلى غصن ، وتجتمع لتفترق ثم تفترق لتجتمع ، وتقتتل مرة وتتلاءم أخرى ، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط فتقبّل صفحة الماء ، ولا تزال تغرّد في صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات ، متنوّع اللهجات ، فيتألف من ذلك الاختلاف نغمٌ بديع لا أعرف له شبيهاً إلا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان في فراديس الجنان

فلم أزل أتقلّب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء ، وأجرّ ذيول تلك الجداول البيضاء ، وأقلّب طرفي فلا أرى رائحًا ولا غاديًا ، وأتسمّع فلا أسمع هاتفًا ولا داعيًا ، حتى وقف بي الحظ على دوحة فرعاء ، مائلة على رأس بعض الجداول ، قد اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم ، رجل هانئ باسم . يقرأ تارةً سورة الجمال في وجه فتاة جالسة بين يديه ، ويقبّل

أخرى ثغر الكأس التى فى يده ، ويترنم فيما بين هذا وذاك بمقطعات شعرية بديعة ، يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها ، وسعادة الوحدة وهناءها ، ويطير بأجنحة خياله فى عالم بديع من عوالم الغيب ، كأنما يريد أن يفرّ بنفسه من هـذا العالم المملوء بالآلام والأحزان ، ويحاول أن يطارد كل خاطر من خاطرات الهموم التي تتطاير حول قلبه ليستكمل لذته في العيش ، ويتغلغل في أعماق المتعة بوحدته وكتابه ، وكأسه وفتاته

فإن مرّ بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عزّ وسلطان ، ولذة واستمتاع قال : ما لي وللملك والسلطان ، والحاشية والجند ، والقصور الشماء ، والجنان الفيحاء . هنالك المحنة والشقاء ، والفتنة الشعواء ، والهموم والأرزاء ، والدماء والأشلاء ، والعويل والبكاء . وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا سيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، بين هذين الثغرين : ثغر الفتاة وثغر الكأس ، وذينك الصديقين: هذا الكتاب المفتوح وذلك الغصن المظل ، كل ما يقدّر السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناء

وإن ذكر الآخرة وما أعدّ الله فيها من العذاب للمسرفين على أنفسهم قال : إن من العجز أن أبيع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول . أنا اليوم موجود فلا بدّ أن أستمتع بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لي بهِ ولا بما قُدّر لي فيهِ . وعسير عليّ أن أتصور أننا معشر الأحياء كنوز من الذهب ندفن اليوم في باطن الأرض لينبش عنا النابشون غداً

ثم يعود إلى نفسه مستغفراً الله من ذنبهِ في شكه وارتيابه فيقول : اللهمّ إنك تعلم أني ما كفرتُ بك منذ آمنت ، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر لك المؤمنون الموحّدون . فاغفر لي آثامي وذنوبي ، فإني ما أذنبت عناداً لك ، ولا تمرّداً عليك . ولكنها الكأس غلبتني على أمري ، وحالت بيني وبين عقلي . وأنت أجلّ من أن تقاضيني كما يقاضي الدائن مدينه ، لأنك كريم والكريم يرتجل المنحة ارتجالاً ، ولا يقرضها قرضاً ، ويسبغ نعمته حتى على العصاة والمذنبين

وأحياناً يستشعر قلبهُ الرحمة بالعباد فيبكي أحياءهم وأمواتهم ويقول مخاطباً فتاته : رويداً أيتها الفتاة في خطواتك على هذه

الأعشاب ، فلعلّ جذورها تستمدّ حياتها من كبد فتاة مثلك ، كان لها قلب مثل قلبكِ ، ووجدان مثل وجدانكِ ، وجمال ورواء مثل جمالك وروائك ، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا أنتِ في غِلالة هذه الأشعة البيضاء ، وإذا هي في دُجُنَّة تلك الأعماق السوداء . فارفقي بها واسكبي هذه الفضلة من كأسكِ على تربتها علها تتسرّب إلى صدرها ، فتطفىء ذلك اللاعج الذي يتأجج بين جوانحها

ثم يتخيل أحيانًا كأنهُ واقف أمام رجل خزّاف يحرق آنيته في تنُّوره فيقول له : رحمة أيها الخزّاف بهذه الحمأة التي تقلبها في هذه النار ، فقد كانت بالأمس إنسانًا مثلك ، وستكون في مستقبل الأيام حمأةً مثلها . وربما ساقك الدهر إلى يدي خزّاف تحتاج إلى رحمتهِ ورفقه . فارفق بها اليوم يرفق بك خزّافك غداً

وآونةً يلبس ثوب الواعظ المنذر ، فينعى على السعداء سعادتهم ويذكرهم بما آلت إليه حال الملوك السالفين ، والأقيال الماضين ،

من خراب دورهم ، وعمران قبورهم ، وغروب شموسهم ، واندثار آثارهم

ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه ، وترقب ذلك اليوم الذي تصوّح فيه زهرته ، وتنطفئ جذوته ، وتضعف مُنّتهُ ، ويمحو نهارُ مشيبه ليل شبابه ، فيزحف إلى قبره شيئاً فشيئاً ، حتى يتردّى فيه ، فيعود كما كان سرّاً مكتوماً في ضمائر الأقدار ، وذرّة هائمة في مجاهل الأكوان

وهكذا ما زال يتنقّل من عبرة بليغة ، إلى عظة بديعة ، ومن خيال جميل ، إلى تشبيه رقيق ، ومن وصف ناطق ، إلى تمثيل صادق ، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التي عليها تشتمل بردة هذا الشاعر الجليل ، مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضهِ وسمائهِ ، وليله ونهاره ، وناطقهِ وصامتهِ ، وصادحهِ وباغمه

وإن فخار الأعراب بمتنبيها ومعرّيها ، والفرنسة بلامارتينها وفيكتورها ، والسكسون بشكسبيرها وملتونها ، والطليان بدانتيها ، والألمان بغوتيها ، والرومان بفرجيلها ، واليونان بهوميرها ، ومصر

القديمة بينتاؤورها ، ومصر الحديثة بأحمدها ، لا يقل عن فخار فارس بخيّامها

هنالك شكرت لك أيها البستاني الصغير نعمتك التي أسديتها إليّ و إلى أبناء الضاد عامة ، بترجمة هذه الرباعيات ترجمة شعرية بديعة سددت بها من اللغة العربية ثغرة قد سدّ مثلها من قبلك البستاني الكبير في ترجمة إلياذة هوميروس، وهنالك لثمت في يدك البيضاء هذه الزهرة الجميلة التي ستنبت حولها الزهرات ، والثمرة الحلوة التي ستتبعها الثمرات . إن شاء الله تعالى

مصطفى لطفى المنفلوطى

مصر ، ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١١

فهرس اللوحات

٣٤٥٦ ١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر